كورين شوفالييه

الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر
1541 - 1510

ترجمة
جمال حمادنة

ديوان المطبوعات الجامعية

كورين شوفالييه

الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر
1541 - 1510

ترجمة
جمال حمادنة

ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

© ديوان المطبوعات الجامعية 07\91

رقم النشر: 3124-07-4

محتويات الكتاب — الصفحة

مقدمة الكتاب 2

تمهيد 5

مدينة الجزائر في بداية القرن السادس عشر 7

مدينة الجزائر تستنجد بعائلة باربروس 20

مدينة الجزائر في سنة 1531 53

مدينة الجزائر تحت خلافة حسن أغا 98

هجوم شارل الخامس على مدينة الجزائر 109

الجزائر المحروسة 119

فهرسة (ببليوغرافيا) 121

ملحق رقم (1) : تاريخ الأحداث 127

ملحق رقم (2) - جدول مقارنة المعلومات المتعلقة بهجوم شارل الخامس 131

* * *

مقدمة :

نذكر كما جرت العادة أن فترة حكم الاتراك لمدينة الجزائر هي فترة مختصرة لعهد دام حوالي ثلاثة قرون كانت خلاله سيادة الأتراك اسمية أكثر منها فعلية والتي تجلت في عدة مظاهر مختلفة :

الظاهرة الاكثر انتشارا في القرنين السابع عشر والثامن عشر هي أن المدينة تأثرت بعادات العثمانيين وفنهم وطريقة حياتهم .

وفي هذه الاثناء بلغت القرصنة ذروتها وانتصر الانكشاريون ضد الرّياس حيث كانوا هم الذين يشكلون الحكومات ويخلعونها دون الاخذ بعين الاعتبار الاوامر القادمة من استانبول .

وكانوا يختارون الدايات من بين الميليشيات القوية التي تدعى " الاوجاك " وغالبا ما كان يتم اغتيال هؤلاء الدايات يوم تنصيبهم من قبل آخرين طامعين في الحكم .
ولم تكن الحالة دائما هكذا .

وأردنا تسليط الضوء على بداية فترة حكم الوصاية على مدينة الجزائر وسنرى فيمابعد كيف تمت ولادة هذه القوة الجديدة التي مهّد لها عروج باربا روس وأكملها من بعده أخيه خير الدين الذي يعتبر الصانع الحقيقي لها .

ويبدو لنا أنه من المهم البحث عن تاريخ مدينة الجزائر تحت حكم الاتراك في الفترة التي لم يكن لهم أي سلطان على المدينة ، وفي الفترة التي شهدت التفاف السكان حول رجل ماهر ذكي للمشاركة في تكوين دولة مدينة الجزائر .

وخلال 30 سنة التي تشكل موضوع دراستنا والتي تمتدما بين (1510 ـ 1541) انتقلت المدينة تحت حماية العثمانيين لأسباب سياسية واستراتيجية قصد التصدي لخطر هجومات الاسبان التي تهدد المدينة باستمرار ولكن عروج ومرافقيه هم الذين يقودون مصير المدينة .

حيث اكتفى الاتراك ببعض الانكشاريين الذين أرسلتهم استانبول لحفظ الأمن والنظام وجمع الضرائب ، ولا عمل لهم سوى ذلك .
ولكن بعد موت صلاح رايس سنة 1556 حدثت أول مواجهة بينهم وبين طائفة الرايس . وتوجب عليهم الانتظار حتى سنة 1558 للحصول على اذن يسمح لهم بالصعود الى البواخر والمساهمة في عمليات القرصنة .

والوثائق التي تعالج الثلاثون سنة الاولى لعهد الدولة الجديدة غير متوفرة ونادرة الوجود .

وقد حاولنا العودة الى العصور السابقة لشرح بعض المظاهر التي ميزت مدينة الجزائر قبل القرن السادس عشر .

وكتابات الرحالة السابقين مثل البكري وابن حوقل والادريسي عن مدينة الجزائر تعتبر قليلة وغير كافية .

وساعدنا كل من ماس لاتري ، برونشويغ ودهينا على فهم حالة المغرب، وعلاقاتها السياسية ومعاهداتها التجارية .

وفي القرن السادس عشر فان الوثيقتين الوحيدتين اللتان اعتمدنا عليهما هما غزوات خير الدين التي ترجمها (فونيور دوبارادي)ونقحها ساندر رانخ ودنيس . وأعمال فراديغو هاييد .

والوثيقة الاولى هي وثيقة تاريخية كتبت بأمر من بارباروس والتي هي عبارة عن مدح واظهار قيمة الجانب التركي ، أما هاييدو الراهب الاسباني فقد كان في فترة من الفترات عبدا في مدينة الجزائر، حيث نعتبر أن جزءا من أعماله يعبّر بوضوح عن مدى حقده ورغبته في الانتقام والاخذ بالثأر . ومؤلفاته عن طوبوغرافيا وتاريخ ملوك مدينة الجزائر تعطينا معلومات غير كافية عن المدينة وسكانها ، وهناك وثائق أخرى لم يتم نشرها والتي لها طابع التشهير والترويج حيث تحتوي على معلومات قيمة وتتمثل في الرسائل الاسبانية المحفوظة في أرشيف سيمونكاس . وفي الوقت المعاصر فان الاعمال السابقة ليس لها طبيعة ومميزات الوثائق الرسمية ويمكن أن تكون هذه الاعمال متشائمة جدا اذا ما أجبرتها الاحداث على ذلك وهي رغم ذلك تتمتع بشهرة كبيرة .

كما تصفحنا كتابات الاسرى مثل سيرفونتيس وداراندو رغم أن أسرهما كان في وقت متأخر (1574 بالنسبة الى سيرفونتيس ،1640 بالنسبة الى داراندو . اضافة الى الاعمال الدقيقة الاخرى فانهم يفسرون لنا حالة من التضارب النفسي وغالبا ما يتناقض الجو العام مع ما يتوفر لدينا من أفكار استقيناها من تلك الفترة .

والعلماء الذين أتو الى مدينة الجزائر ابتداء من عام 1830 مثل بيربروغر وديلفوكس وغرامونت كان لهم الفضل في نقل بقايا العادات والتقاليد الشفهية . التي استطاعوا الحصول عليها وكذلك وصف الآثار التذكارية التي كانت موجودة آنذاك .

ويعطينا كلاين ، ديلفوكس وكولين معلومات أولية عن طريق دراسة المخطوطات والبناءات التي اختفت منذ زمن بعيد . ليسبيس وأوديل شرحوا حياة القدماء بواسطة طوبوغرافيا المدينة ، وصناعاتها التقليدية ولاحظنا خلو هذه الكتابات من الموضوعية التي تكون في بعض الأحيان مشوشة والتي تعكس روح الاستعمار الخاصة في تلك الفترة .

ولكن ألا يوجد شيء نستفيد منه ؟ وهل نهمل عمل عدة أجيال من العلماء الذين لم يكونوا كلهم سيئين أو أغبياء ؟ (1)

وبحثنا أيضا في الأعمال المخصصة للامبراطورية العثمانية ، وحلنا على معلومات خاصة بحكم الوصاية على مدينة الجزائر من خلال فون هامار وكلوت . كما أن تراجعهم بالنسبة الى تاريخ مدينة الجزائر يبين لنا سمة النزاهة في ذلك .

وأخيرا فان هذا الموضوع يهم الباحثين الجدد أكثر فأكثر ، واطلعنا خلال ذلك بمنفعة بونو ، بلهاميس ، بيرك ، بورويبا ، وخاصة برودويل في مؤلفه الهام البحر المتوسط والشعوب المتوسطية في زمن فيليب الثاني والذي يعتبر منبعا هاما للمعلومات .

---

(1) العربي خلفون ، في الجزائر أحداث رقم 1025 ص 39 من 6 الى 12 جوان 1985 .

الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر

(1941 _ 1510)

ملاحظات لخدمة تاريخ مدينة الجزائر
في القرن السادس عشر

تمهيد :

في أكتوبر سنة 1493 ، وطأت أقدام آخر ملوك غرناطة محمد الثاني عشر والذي يطلق عليه المسيحيون اسم بوعبديل، أرض ايبيريا للمرة الأخيرة قبل أن يلتحق بمدينة فاس ، وحسب أمه عائشة فانه " بكى بكاء النساء على مملكته التي لم يستطع المحافظة عليها ".

ولم تصل فترة حكمه الى المرحلة النهائية حتى يبدأ في الهجرة ثانية نحو الارض المغربية التي استقبلت المسلمين المضطهدين .

حيث تتنازع العديد من الذين سبقوهم في شمال افريقيا بواسطة المرينيديين في الغرب ، الزيانيين في تلمسان والحفصيين في الشرق .

ان مدينة ساحلية متواضعة من بين المدن الاخرى الكثيرة ستستقبل عددا كبيرا من المهاجرين .

وتأسست مدينة الجزائر (جزائربني مزغنة) في النصف الثاني من القرن العاشر من طرف الأمير زيريد بولوغين على أنقاض المدينة الرومانية القديمة المسماة ايكوزيوم ، وفي نهاية القرن الرابع عشر أصبحت مدينة مزدهرة ومستقلة .

واستمر النزاع عليها طويلا بين امبراطورية الزيانيين وامبراطورية الحفصيين فمرة تخضع للزيانيين وأخرى للحفصيين حتى جاء الثعالبة واستولوا عليها (والثعالبة هم من فرع الماكيل المنتشرة في سهل

المتيجة بموافقة بني ملكيش وذلك في القرن الحادي عشر تقريبا (1) حيث أخذت استقلالا نسبيا ثم أنشأ جمهورية صغيرة يحكمها فئة برجوازية قليلة تدعى الاوليغارش .

ان هذه المدينة دون الاهتمام بسقوط مملكة النازريد ستكون أول خطوة لنهاية أطول الظروف والتي يقصد بها أن تكون المخطط الأول في سنوات قليلة على مستوى منطقة البحر المتوسط بتغيير حالتها من مدينة الى دولة اقليمية مما يؤمن القضاء على القرصنة في البحر وهذا هو ما نسميه مع فرناند برودويل الثروة الهائلة .

---

(1) ابن خلدون " تاريخ البربر " ترجمة سلان الجزء الاول /ص 119 ـ 123 .

وليون الافريقي : " وصف افريقيا " (ترجمة ايبولارد) الجزء الاول ص 33 .

الفصل الأول

الجزائر في بداية القرن السادس عشر

المدينة :

المعلومات التي تتوفر لدينا والمتعلقة بمدينة الجزائر قبل هذا العصر قليلة . فعدا عن موقعها الجميل وكونها مكانا يجتمع فيه كل المسافرين الا أن أحدا لم يصفها بأنها كانت مركزا تجاريا وفكريا كبيرا .

فقد خصص لها البكري في القرن الحادي عشر بعض السطورفقط (2) ووصفها ادريسي بأنها مركز تجاري مزدهر في القرن الثاني عشر (3) وفي نفس العصر وصفها ميركاشي بأنها مدينة صغيرة اسمها الجزائر وتنتمي الى قبيلة بني مزغنة (4) . أما الابداري في القرن الثالث عشر فقد ذكر بكل أسف أنها كانت محرومة من العلم، وأضاف قائلا : انه لمن الصعب مقابلة أناس مثقفون أو أشخاصا من ذوي المعرفة والعلم (5).

وعلى العكس من ذلك ، فان الاشعاع الفكري في القرن الخامس عشر للعلامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي ، برهن على أن المستوى الثقافي للمدينة ليس متدنيا ولم تخبوا كل العلوم في هذه المدينة ومع ذلك فان هذا الأثر الثقافي مازال حديثا . ولا شيء يدل في السابق على أن مدينة الجزائر بلغت من مستوى الثقافة مصاف المدن الغنية بأدبائها وعلمائها مثل مدن تونس وبجاية أو تلمسان .

---

(2) البكري : "وصف افريقيا الشمالية" ترجمة سلان صفحة 136.
(3) ادريسي : مقالة ديلفوكس في المجلة الافريقية XIX ص 509.
(4) مراكشي : في المجلة الافريقية 37 ص 230
(5) الابداري: الجريدة الاسيوية 1854 الجزء 4 ص 157 ـ 158.

وتؤكد لنا مقولة لجاك بيرك والتي يرجع تاريخها الى عصر انطلاق الفكر في مدينة الجزائر بأن " عبد الرحمن الثعالبي لم يكن المؤسس الأول لهذه المدينة بل يمكن أن يكون المؤسس الثاني لها (6).

" لقد ظل سيدي عبد الرحمن الذي ينحدر من قبيلة ثعلبة المشهورة والذي حكم مدينة الجزائر حتى ذلك اليوم سيد المدينة ..."

ورغم أن الاشعاع الفكري لمدينة الجزائر كان معدوما أو غير كافيا الا أن هذا لا يعني بالتأكيد عدم وجود مراكز للدراسة في المدينة مثل المدارس والزوايا. وقد لاحظ " ديلفوكس " من خلال أبحاثه الأثرية عن الجزائر في فترة ما قبل الأتراك (7) وجود زاوية في المكان الحالي لجامع المسمكة، ومدرسة العنانية، ومدرسة ابن السلطان ومدرسة ابن الملك والتي يفصلها عن (شارع ماهون سابقا) بعض الشوارع. كما ذكر في نفس الوقت عدة مساجد اختفت فيمابعد حيث كانت موجودة في المدينة ونذكر منها : جامع صغير كان يوجد في المكان الحالي لجامع كتشاوة ، جامع ستي مريم بالقرب من باب الواد، الجامع المسمى سيدي عبد الرحمن من جهة البحر ، جامع سيدي رمضان في في مرتفعات المدينة تحت سور القصبة في ذلك الوقت . وبالتأكيد كذلك الجامع الكبير الذي بناه المرابطون في القرن الحادي عشر مقابل البحر ، وهو بدون شك بني على أنقاض الكنيسة التي وصفها البكري في بداية نفس القرن " حيث نستطيع مشاهدة حجارة كبيرة في قواعدها وأسسها كتب عليها بالحروف اللاتينية .

تتمتع مدينة الجزائر بازدهار أكيد وهذا راجع الى موقعها على شاطىء البحر ، وعلى مقربة من سهل المتيجة الغني مما أدى الى سهولة التجارة في هذه المدينة كما يشهد على ذلك وجود " قيسارية " (8) وهي حارة مخصصة للتجار الاوروبيين والذين كان لهم الحق في وجود

(6) جاك بيرك : المغرب الداخلي XV - XIX ص 221 .

(7) دبلفوكس : الجزائر - دراسة أثرية وطوبوغرافية في المجلة الافريقية XIX ص 511 - 519 .

(8) سيفيتاتيس أوربيس تيراروم : "صورة الجزائر" رقم 7 (بروم استامب 59 الجزء 2) .

قنصل ، وكنيسة و دكاكين (حوانيت) خاصة بهم كما أنهم يمتلكون مساكنهم الخاصة (9) ، ان وجود هذه القيسارية استلزم ضمنيا وجود " مكتب للجمارك" لأن المسيحيين لا يسمح لهم بممارسة نشاطاتهم الا في بعض الموانىء هناك حيث قاموا بانشاء مكاتب الجمارك(10) .

اننا لم نجد لها أي أثر ، لكننا قد نشاهدها مبنية غير بعيد عن مسجد المرابطين الكبير والذي كان يمر بالقرب منه الشارع الروماني القديم والذي سمي منذ ذلك الحين بشارع البحرية . والذي كان يستخدم منذ القدم لخدمة الساحل (11) لأنه لم يكن يوجد بعد أية منشآت مرفأية : فالجزر الصغيرة التي سميت الجزائر باسمها تشكل واقيا سيئا ضد العواصف البحرية في الشتاء لذا كان يجب سحب السفن والزوارق على الشاطىء وربطها عند مصب واد مراسل . وشيد الجامع الكبير والبيوت، التي تشكل واجهة للبحر على نتوء صخري وعر عند داخل البحر ويصل ارتفاعه الى 12 متر .

وبنيت مدينة الجزائر بشكل شاقولي على مستوى سطح الماء كما نستطيع تخيلها في أيامنا هذه حيث نرى بعض نقاط الكورنيش متجهة نحو بولغين .

ان مدينة الجزائر نفسها تتدرج من جانب التل محاطة بسور كبير مبني من الآجر وهو في حالة سيئة (12) . وهناك بابين رئيسيين (ان لم يكونا الوحيدين) يفضيان الى جنوب سهل المتيجة، وهما : باب عزون وشمال مجرى واد مراسل ومرتفعات بوزريعة ، والثاني هو باب الواد . ويصلهما شارع كبير وهو شارع الاسواق حيث يوجد فيه معظم التجار. ويقع السوق الاسبوعي الذي يدعى سوق الجمعة في المكان

---

(9) ماس لاتري : معاهدات المسيحيين مع العصر الوسيط. ص 89 .

(10) عطا الله دهينا : دول الغرب المسلمة في القرن XIII-XIV و XV ص 380 .

(11) باسكالي : " تطور الشوارع " في الوثائق الجزائرية 1955 ص 175

(12) هاييدو وليون الافريقي الجزء 2 ص 352 O.P cité

الذي صار يسمى شارع سوق الجمعة ... ويطل مدخل قصر الحكومة على وسط شارع الاسواق تقريبا : الجنينة " أو دار السلطان القديمة " . ويمكن أن نتساءل مع بيربروغر : متى ومن الذي بناه ؟ بدون شك فقد شيّد على أنقاض الآثار الرومانية مثله مثل الجامع الكبير. وأثناء طوافنا في المتاهة ومبانيها حتى ولو اختلفت في عمرها وشكلها الا أننا شاهدنا الشرفة ذات الاقواس التي بناها العرب والتي ترتكز على أساس من الحجارة ذات الحجم الكبير والتي يمكن أن تكون من صنع الرومان (13). والذي يهمنا في ذلك العصر انه بالتأكيد لم يكن له أهمية مثل التي صار عليها فيمابعد حيث أصبح حارة حقيقية للبناء المتواصل للعديد من العمارات، في وسط المدينة. ولكنها كانت من المؤكد في الماضي مقرا لمجلس الاعيان الذين كانوا يحكمون المدينة : في الواقع فان الوصف الذي أعطاه " غزوات خير الدين" للقصر حيث كان محاصرا من قبل المتمردين الجزائريين فهو يطابق تماما موقع الجنينة . وتقودنا الى هذا القصر ثلاثة شوارع ، وهي الشوارع الرئيسية الثلاث في المدينة ، وأضاف من جهة أخرى أن هذا القصر كان للباشا في الوقت الذي كتب فيه هذا الوصف سنة 1560 وكان من الطبيعي جدا أن تغتصب عائلة باربا روس الحكم في مدينة الجزائر، كما أثبت بيربروغر ، وأن تقيم في البيت الملكي الذي يعود الى أجدادهم السابقين ، وهو مسكن ملائم جدا وبدون شك تستطيع مدينة الجزائر أن تقدمه للملوك (14) .

ومباشرة بعد الجنينة يوجد أرض بور حيث يمكننا أن نشاهد بقايا آثار رومانية بين الاشواك ، ومنها مدرج مدينة الجزائر الذي كتب عنه البكري (15) ، كما نشاهد في ذلك المكان أيضا أكيدوك (Acqueduc) روماني ، ومن جهة أخرى فان المدينة لم تكن محاطة بأشجار الصنوبر

(13) بيربروغر في المجلة الافريقية XV ص 389 .
(14) = = = = XV ص 389 .
(15) دبلفوكس في المجلة الافريقية XIX ص 294 .

المزروعة الى جانب بعضها بعضا كنسيج مشدود . والتي سيذكرها هابيدو فيمابعد. وتحتوي مدينة الجزائر على مسافات كبيرة خالية وآثارا رومانية انبثقت في وسط المقصورة (16). وهذه الشوارع الضيقة البسيطة يمكن أن تكون أيضا على منحدر يسوده شاطىء رملي باتجاه جامع المرابطين الذي بني بشكل زوايا على الطريقة الرومانية (17). وبوصول الاتراك الى ذلك المكان المستوي والمهمل منذ عدة قرون : حيث لا يرى سوى بعض الآثار والاشواك التي ترعى فيها الاغنام . ونظرا لهذه الحالة فان الاتراك أطلقوا عليه اسم كيسي أوفا : أي سهل الاغنام وبقي هذا الاسم ينتقل من الشيوخ الى الشباب جيلا بعد جيل (18).

ان البناءات، لا ترتفع كثيرا مثل مسجد سيدي رمضان الصغير الذي بني سقفه من القرميد الأحمر، والمنارة الثقيلة المسننة تشير الى النهاية العظمى للجبل (أي المدينة بحصر المعنى)، حيث يوجد من ألف الى ألفين من البيوت تتكون منها المدينة ولا نبالغ اذا قلنا بأنها كانت، مسقوفة ومقرمدة على الطريقة القبائلية أين تمتد ساحات شيدت على الطريقة العربية أو الاندلسية دون شك (19) .

وتوجد القلعة : " القصبة " خلف جامع سيدي رمضان حيث تقع القصبة على انخفاض 300 متر عن مستوى القصبة التي نعرفها الآن.وفي الواقع فقد امتدت بدون شك نحو الغرب من سنة 1552 ـ 1572 وهو تاريخ أقدم وثيقة عرفت والتي أعطت لجامع سيدي رمضان الاسم الذي حمله خلال قرنين من الزمن وهذا الاسم هو جامع القصبة القديمة (20) ويعني ضمنيا بأنه يوجد مسجد جديد آخر .

---

(16) نفس المصدر السابق .

(17) جاك بيرك : " داخل المغرب، " ص 208 .

(18) شهادة أحد الشيوخ الجزائريين عن دبلفوكس في المجلة الافريقية XIX ص 423 .

(19) جاك بيرك " داخل المغرب " ص 208 .

(20) دبلفوكس في المجلة الافريقية XX ص 153 و XIV ص 172 .

وتوجد مقبرة أطفال الملوك غير بعيدة من هناك مما يجعلنا نفكر بأن ملوك الجزائر والامراء البربر والسادة المرابطيون كانوا يسكنون الحصون في العصور الغابرة (21) .

ومهما يكن فقد كانت، في بداية العصر في حالة سيئة جدا ، وهذا ما يفسر مبادرة عروج بالقيام بتحصين المدينة عندما استلم السلطة . حيث قام بتزويدها بقليل من المدافع (22) .

وكانت الجزائر في الماضي تشكو من مشكلة الماء. ولكن يوجد بالتأكيد عدة موارد صافية من المياه والتي تسيل على الشاطىء حيث يستخدمها السكان للشرب (23). وأدت هذه الموارد المائية الى علاقات اجتماعية كبيرة في الميناء بين السكان والبحارة الأجانب، الذين يجدون مكانا سهلا للتزود بالماء العذب، ، ولكن ما من شك في وجود نبع ماء في سهل الأغنام الموجود داخل المدينة " والذي سمي فيمابعد كتشاوة" .

ومن أجل احتياجات التنظيف فانه يوجد في كل بيت بئر أو خزان ماء . أما ماء الشرب فيجب، الذهاب يوميا لتعبئته واحضاره، ونقل هذه المياه مضمون بواسطة الحمير والجمال . لا يوجد مصلحة تشرف على التنظيف بشكل منظم جدا، لذا فأمام كل بيت أعدت أحواض لقاذورات الشوارع (24). كما أنه لا يوجد مصارف للمياه حيث كانت الاوساخ ترمى في البحر ، ولا يوجد دور للضيافة أو فنادق بل يوجد فقط خارج باب، عزون بعض الأماكن التي يمكن تأجيرها بدون أسرة ولاغذاء وهي أماكن تسمح للاشخاص النوم ممددين على الارض وأماكن أخرى لربط الدواب والمطية التي يركبها هؤلاء . أما من كان له أصدقاء فيمكنه أن يسكن عندهم (25) .

---

(21) دبلفوكس في المجلة الافريقية XVIII ص 514 XIV ص 174.

(22) هاييدو " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 22

(23) ابن حوقل "كتاب سورة الارض" ترجمة كراميرس ووايت ص 72 الجزء 1 .

(24) وثائق جزائرية 1951 ص 219 .

(25) هاييدو : الطوبوغرافيا .في المجلة الافريقية XV ص 393 .

التجمع السكاني :

تكتسي الجزائر بأهمية كبيرة بالمقارنة مع مدن مغربية أخرى كما ذكر لنا مؤخرا ليون الافريقي سنة 1529. ويقول : أن هناك 4000 عائلة (26) في مدينة الجزائر ، 6000 عائلة في وهران ، 8000 عائلة في بجاية و 13000 عائلة في تلمسان .آخذين بعين الاعتبار في ذلك الوقت حيث كتب عن التقدم والازدهار الرائع الذي عرفته المدينة بعد وصول الاتراك ونستطيع القول أن المدينة كانت صغيرة ومتواضعة في بداية القرن .

ان تجمعات المدينة السكانية النشيطة والتي تعمل بالتجارة تتكون قبل كل شيء من (البلدي) وتعني ناس البلد وهم خليط محتمل من قبيلة الماكيل الموجودة في سهل المتيجة ومن المغاربة (القادمين من المغرب) الوطنيين من سلالة بني مزغنة القاطنين على الجزر التي بنى عليها بولغين المدينة .وكما ذكر لنا غرامونت بأنهم أناس ذوي أخلاق طيبة ولطيفة ، كسولون ، كثيروا الكلام وفضوليون (27) . كما أنهم يعملون بالتجارة ويمارسون القرصنة كلما سنحت لهم الفرصة وربما يعملون أيضا في تجارة الذهب والعبيد مع افريقيا السوداء ، ويزرعون حدائقهم في سهل المتيجة ، ويبيعون للبحارة الاجانب الزبدة ، الجلد ، العسل والشمع .
واجتمعوا في مجلس الأعيان تحت حماية قبيلة الثعالبة الذين كانوا يحكمون المدينة .

وجاء اللاجئون الاسبان فيمابعد حيث أطلق عليهم المؤلفون الأوروبيون اسم الموريسك أي المغاربة ليفرقوا بينهم وبين السكان المغاربة الأصليين والذين هم بالنسبة لهم كل سكان المدينة غير الاتراك .

---

(26) ليون الافريقي : وصف افريقيا ..الجزء 2 ص 347 .
(27) غرامونت : " تاريخ الجزائر " ص 43

ويقسمون الى فئتين :

(1) التغريون : جاؤوا من مملكة الاراغون في فلنسيا وكاتالونيا .

(2) المودجار (Mudegare) وهم آخر من وصلوا من غرناطة والاندلس ، وحافظوا على لغتهم حيث يتكلمون الاسبانية فيمابينهم (28) وجلبوا معهم من بلادهم تقاليدهم الفنية والحرفية حيث أنهم يصنعون الاسلحة ، والبارود ، يربون دودة القز ، ويصنعون الاقفال ، يعملون بالنجارة والنحت ، يتقنون البناء والخياطة وصناعة الاحذية ، ويتقنون صناعة الفخار ولهم مميزات مشتركة : وهي أنهم يكرهون المسيحيين ولن يصفحوا عنهم أبدا لأنهم أضاعوا بلادهم .وعندما توفرت لديهم الامكانيات ، جهزوا سفنا صغيرة بالسلاح كي يبعثوها للقرصنة حتى تحل محل سفنهم التي مازالت موجودة في اسبانيا ، ويقومون بالقاء القبض على سفن وعبيد مسيحيين كلما سمحت لهم الفرصة رغبة في الانتقام .

لقد بدأت القرصنة في هذا العصر تأخذ اهتماما كبيرا وذلك يعود الى فضلهم في هذا المجال بعد أن كانت القرصنة في هذا الجزء من البحر الابيض المتوسط عبارة عن حكايات ونوادر . ولم تتطور القرصنة الاسلامية الا عندما تقدمت الفتوحات بحيث سمحت لهابتدمير السواحل المسيحية (29) فوضعت الانشاءات والانعطافات لطرد السفن المسيحية وعلى الاخص منها السفن الاسبانية ، وهذا العناد والاستبسال يبين مدى حقد الاسبان ورغبتهم الشديدة في استرجاع بضائهم المتروكة في أوروبا بأي طريقة كانت . وبوصول القراصنة الى هذه المنطقة انتعش وتنشط الساحل المغربي وبفضلهم مثلا صارت مدينة الجزائر مركزا للقرصنة في القرن الرابع عشر (30) ويمكننا القول بأن القرصنة لم تصل أهميتها في ذلك العصر الى الدرجة التي وصلت اليهافيمابعد ،

---

(28) بيزونيل سيتي عن الدكتور براهيمي في " مجلة التاريخ"9 ص 46 ومجلة العالم الاسلامي جزء XXX 1915 ص 416.

(29) جون مونلو:"الدول البربرية" ." مجموعة ماذا أعرف"؟ ص 33.

(30) نفس المصدر السابق . ص 43 .

ونحن نعرف مثلا أنه في سنة 1510 عندما فرض ملك الأراغون على سليم التومي تحرير العبيد المسيحيين المحتجزين في مدينة الجزائر ان هذا الأخير لم يأخذ معه سوى 130 أسيرا عندما ذهب الى بورغوس لاعلان ولائه وطاعته ، وكان قد فك قيود هؤلاء الأسرى (31) بينما تحدث هابيدو عن 25 000 من العبيد وجدوا في مدينة الجزائر في نهاية القرن .

واليهود يشكلون عنصرا آخر من عناصر هذا التجمع السكاني . فالهجرة الأولى والهامة التي قام بها الفونس أراغون من اليهود المايوركيين على أثر فتح جزر البليار سنة 1287 والذين أطلق عليهم اسم " الشكليين " لأنهم كانوا يحملون معهم باستمرار أبا عن جد شريحة مستديرة تسمى " شيكلا " . وشهد القرن الخامس عشر وصول أعداد كبيرة من اللاجئين الاسبان الذين أطلق عليهم اسم "كيبوزيين " نسبة الى القلنسوة التي كانوا يرتدونها والمعروفة باسم " كابيوس".

واحتل هؤلاء الجزء الأسفل من كل جهة في شارع السوق الكبيرة وخاصة بين الشارع والبخر ، كما تجدهم بالقرب من باب الواد ومقابل السورحيث يوجد هناك كنيسهم (معبدهم) الرئيسي : " الحارة" وهي مكان اللجوء في أيام الهيجان والفتن الشعبية . وكانت علاقتهم جيدة مع بقية سكان المدينة في ذلك العصر حيث كان وضع الحفصيين يتصف بالتسامح والتساهل الواسع (32).
وجلب هؤلاء المهاجرين بذكائهم المال والعلم ، كفاءتهم واستعدادهم للتجارة والصناعة ـ ونذكر من بين الذين قدموا من غرناطة "الجافيسون"

---

(31) : ديلفوكس في المجلة الافريقية xx ص 66 .
(32) : برونشويع " البربر الغربيين تحت حكم الحفصيين " الجزء ص 401 .

الذين يكونون أطباء الى ملوك مدينة الجزائر (33) . كما جلبوا معهم من اسبانيا طاولات القانون المطرزة بالذهب والتي حفظت في كنيسهم الموجود في مدينة الجزائر لغاية سنة 1962. كما حفظوا بكل ورع وتقوى في مكتباتهم عددا كبيرا من المخطوطات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الذين سكنوا الكاستيل في اسبانيا . وكان الشعر يشكل موضوعا للدراسات بالنسبة ليهود اسبانيا (34) . وان مهنة اليهود التقليدية هي صياغة الذهب وصك النقود، كما أنهم كانوا تجارا متخصصون في بيع وشراء البضائع التي غنمها القراصنة المسيحيين .

ويستطيع اليهود التنقل بكل حرية ، وهم يعيشون مثل المسلمين ويتمتعون بصداقة حميمة مع عامة الناس ويحظون باحترام الحكام لهم (35). ويمكن أن نشير الى الأهمية الاستثنائية ليهود الجزائر في القرن الخامس عشر حيث أن مدينة الجزائر لم تحتل بعد مكانتها لتكون عاصمة (36) . وفي الواقع فوجئنا بتألق واشعاع الحاخامين سيمون ديوران واسحاق برافات ، حيث أن كلامهم يعتبر بمثابة قانون يقتدى به للطائفة اليهودية داخل المدينة كما في خارجها وحتى بجاية ، وتحت تأثير هذان الحاخامان فان الطائفة اليهودية اعترضت على صلاحيات شيخ بجاية المعين من طرف الحكومة، وقد شكل اليهود مجلسا خاصا بهم سمي " ني ايمانيم " حيث ينتخب أعضاؤه انتخابا، ويعمل هذا المجلس على حل المشاكل الخاصة باليهود ويمنع اليهود من الاحتكام الى غير المحاكم اليهودية بحيث صاروا يحترمون المحاكم الربانية الحاخامية شيئا فشيئا .

---

(33): لسبيس : الجزائر ، دراسة جغرافية وتاريخ تخطيط المدينة . ص 126.

(34) : المؤتمر العالمي الثاني لدراسة حول مؤلفي حوض البحر المتوسط الغربي. الجزء II ص 281.

(35): أوديل ، الجزائرية والتونسية ـ ص 69 .

(36) : ايزنبيث : اليهود في الجزائر وتونس في عصر الأتراك ـ في المجلة الافريقية عام 1952 رقم 96 ـ ص 126.

فمدينة الجزائر وتلمسان تبدوان وكأنهما العاصمتين الثقافيتين ليهود شمال افريقيا .

والى هذه العينات الثلاث من التجمع السكاني يجب اضافة " البيراني " وهم الناس الذين قدموا من الريف .
وهؤلاء هم أولا من النوماديون الذين جاؤوا من الجنوب (العرب أو العربس) كما تسميهم النصوص الاسبانية ، وهم فئة من المتشردين والغير مرغوب فيهم ، جاؤوا على وجه الخصوص لطلب الصدقات (37) وبشكل عام فانهم يعيشون في الضواحي الشعبية أمام باب عزون .
وتخصص المزابيون والبسكريون والاغواطيون والقبائل في بعض المهن مثل : العمل في الحمامات ، القصابات ، الطواحين ، وعملوا كمزودين للمزابيين بالعبيد السود ، كما تخصصوا في السقاية (حمل الماء) وفي تنظيف القاذورات والأوساخ ، وفي حفر آبار المياه ، ويعملون عتالين عند الآخرين .

انهم يأتون للعمل في مدينة الجزائر ولكنهم لايحضرون معهم عائلاتهم ، اضافة الى بعض التجار المسيحيين الذين يعيشون داخل " الكيساريا " . وبهذا يكون قد تكون لدينا فكرة عن هذا التجمع السكاني المتباين في المدينة ، وسترتفع نسبة هذا التباين في السكان مع وصول الاتراك .

والجيش ؟ لانتكلم عنه أبدا . فبعد الزمن البطولي الذي تحدث عنه ابن خلدون في القرون الماضية أين رأينا الجزائريين يقاتلون عدة مرات ضد أسياد الشرق والغرب الذين طمعوا في مدينتهم ، ويبدو أن حب القتال قدر ترك مكانه للبرجوازيين الهادئين والتجار .

---

(37): برونشويغ : البربر الشرقيين تحت حكم الحفصيين، الجزء ص 401 .

(38): ايزنبيث : O.P Cité ص 131 ـ 132.

(39) :هابيدو : الطبوغرافيا ، في المجلة الافريقية XIV ص 494.

وهذا يفسر لنا حالة المسؤولين الذين فضلوا توقيع المعاهدات مع الاسبان سنة 1510 بدل أن يقاوموهم .

وتلخيصا لهذا ، فان مدينة الجزائر في نهاية القرن الخامس عشر ، كانت مدينة سعيدة ، مزدهرة ، مسالمة ، هادئة ، وتستقبل زوارها بوفرة وغزارة ، ولايوجد فيها شخص يعيش مهددا بالخطر ، ولاأحد يستطيع التكهن والتنبؤ لمدينة الجزائر ، فهي مدينة ذات أهمية متوسطة ، ويحكمها مجلس أعيان برجوازي ، وربما سيجعلها غناها هذا عاصمة لدولة ما في يوم ما (40) .

حالة حوض البحر الأبيض المتوسط :

كانت الامبراطورية العثمانية في أوج توسعها في منطقة المشرق . فبعد قتالها التي خرجت منه منتصرة على الامبراطورية الرومانية في الشرق ، وسقوط استانبول سنة 1453 . كان الجيش التركي ينتقل من نجاح الى نجاح : فانتصر على الفرس في معركة تشالديران سنة 1514 ، وانتصر على سوريا سنة 1517 بحيث ضمن السلطان حماية الأماكن المقدسة في المنطقة العربية ، كما ضمن أيضا طريق الذهب في السودان . وفي شهر أوت 1517 تسلم السلطان مفتاح الكعبة المشرفة من ابن شيخ مكة (41) ، وهكذا فقد أصبح سلطان استانبول من الآن فصاعدا هو الملك الذي اختاره الله لحماية العالم الاسلامي وليس فقط كرئيسا لدولة ذات حدود معينة (42).

(40) : مارسيز : ماضي الجزائر المسلمة ، في تاريخ ومؤرخوا الجزائر ص 141 .

(41) : فرناند بروديل : البحر المتوسط ـ ص 18 ، الجزء II

(42) : اندري كلوت : سليمان العظيم .

في الغرب ، بعد المرحلة النهائية للفتوحات والتي نتج عنها سقوط مدينة قرطبة سنة 1492 ، أمل الاسبان في الانتقام من المسلمين في محاولة من طرف اللاجئين الاسبان لاعادة فتح الأراضي التي خسروها وكما قال فرناند برودويل : " ان كل مؤرخي الكاردينال كزيميني (Ximénés) قد ركزوا على الأسباب الدينية للمشاريع الاسبانية على هيئة صليب ، هذه الأسباب لايمكن اهمالها ، ولكنها ليست الوحيدة ، فاسبانيا لا تضمن مستقبلها الا اذا جاء اليوم الذي تصبح فيه سيدة السواحل الافريقية المواجهة لها (43) .

وزيادة على ذلك فان حركة القراصنة الجزائريين والامراء العرب كانت تزعجهم . فالتمرد الذي حدث فيما بين 1499 ـ 1502بمحاولات من كزيميني (Ximénés) لتحويل الموريون (المغاربة) عن دينهم وذلك حتى يخلص اسبانيا من الشعور بالخطر المتمثل في شمال افريقيا .

ورغم تردد فارديناند دراغون فان الكاردينال بدأ الحرب سنة 1505 ثم استولى على المرسى الكبير في وهران ، وفي سنة 1510 ، استولى على مرسى بجاية .

ويمكننا أن نلاحظ بأن مدينة الجزائر لم تكن تقلقهم كثيرا حتى يقوموا بابعاد خطرها عنهم بسرعة . والأهم من ذلك بالنسبة اليهم هو ضرورة ضمان الموانيء الهامة لممالك الزيانيين والحفصيين قبل أن يبدأوا بالهجوم على المدن الصغيرة المستقلة والتي لايمكن في أي حال من الأحوال أن يكون الدخول منها الى الساحل الايبيري يحمل مظهرا من مظاهر الفتح ثانية .

---

(43) : فرناند برودويل : " الاسبان في مدينة الجزائر " في تاريخ ومؤرخوا الجزائر " ـ ص 231 .

الفصل الثاني

مدينة الجزائر تستنجد بعائلة باربا روس

كان سليم التومي يحكم مدينة الجزائر سنة 1510 وهو ينتمي الى قبيلة الشعالبة فرع بني تومي (44) وبمجرد الاعلان عن سقوط بجاية أصاب مدينة الجزائر هلع شديد لأنها لم تكن تملك الا القليل من الاسلحة ولم يكن لديها أية مدفعية (45) . لهذه الأسباب كلها اجتمع مجلس أعيان المدينة وقرروا توقيع معاهدة استسلام بدل الوقوع تحت الحصار .

قلعة البنيون :

في 31 جانفي 1510 ذهب سليم التومي بصفته شيخ مجلس الاعيان متوجها الى بجاية لاعلان ولاءة للقائد الاسباني " بدرو نافارو " الذي احتل عاصمة الحماديين القديمة .

وطلب هذا الاخير من سليم التومي دفع ضريبة باهظة واطلاق سراح كل العبيد المسيحيين الموجودين أسرى في يد سكان المدينة ، ولكن من جهة أخرى فرض بناء قلعة على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر ، وزيادة على ذلك فانه يتوجب على حاكم مدينة الجزائر الذهاب شخصيا لاعلان خضوعه وطاعته لملك اسبانيا برفقة مولاي عبد الله حاكم مدينة تنس الذي أعلن بدوره خضوعه وطاعته ، وكانوا محملين بالهدايا الثمينة ومعهم 130 من العبيد المسيحيين تم تحريرهم ورفعت القيود والسلاسل من أيديهم وأرجلهم (46). ولم يتوفر لدينا أي معلومات

---

(44) مارمول : " فريقيا " الجزء الاول ص 86 .

(45) كما أثبت ذلك بعد عدة سنوات أول فشل لعروج أمام قلعة البنيون .

(46) ميرسيين : " تاريخ افريقيا الشمالية " الجزء الثاني ص 426.

عن معاهدة الاستسلام واعلان الطاعة التي وقعها سليم التومي، ولكننا نعتقد أن هناك نقاطا كثيرة مشابهة لتلك التي تم توقيعها في العام الذي تلاه والخاصة بمدينة مستغانم والتي تنص على أن السكان المغاربة أو اليهود كلهم مجبرون على خدمة ملكة القلعة بوفاء واخلاص، ويدفعون كذلك الضرائب والغرامات المفروضة عليهم وذلك في أول جوان من كل سنة . وتحول هذه المبالغ الآتية من الضرائب الى أمين خزينة مدينة وهران دون أي تزوير أو غش أو نقصان أي شيء منها.

وتنص المعاهدة أيضا على استرجاع كل العبيد المسيحيين الذين ينتمون الى سكان مستغانم ومزغران ... كما يتم لحاكم قرطبة دون دييغو فرناندیز احتلال حصون هاتين المدينتين باسم سمو أميرة قرطبة وعلى السكان أن لا يرفضوا بيع الجنود المواد الغذائية التي يحتاجونها بأسعار معقولة ، وفي حالة ترميم هذه الحصون أو تطوير وسائل دفاعها أو بناء حصون أخرى ، على السكان أن لا يعترضوا على ذلك بل يتوجب عليهم تقديم المساعدة باعارة حيواناتهم بأسعار معقولة كما يجب عليهم تزويد مدينة وهران ومرسى الكبير بالمواد الغذائية اذا طلب منهم ذلك ، وأن لا يسمحوا بشحن أو تفريغ أي باخرة في الميناء دون الحصول على اذن من الملك أو الملكة ...الخ..(48) .

واستخلصنا من هذه الوثيقة الخاصة بوضعية مستغانم عبارات وكلمات معينة ، ولكننا احتفظنا بالسياق الذي تم فيه تحرير المعاهدة مع مدينة الجزائر :
وهذا ما يفسر كيف أن المهندس المعماري مارتان دو رونتيريا جاء طواعية أو اكراها (49) حيث خصّصت نفقات كبيرة لبناء القلعة على أحد أهم الجزر المقابلة للمدينة والتي أصبحت تعرف باسم قلعة البنيون نسبة الى الصخور الصلبة التي بنيت عليها (50).

---

(48) أرشيف سيمونانكس 26 ماي 1511 نقله بلهاميس :" تاريخ مستغانم " ص 61
(49) هاييدو :" توبوغرافيا" في المجلة الافريقية XIV ص 415 .
(50) بيربروغر : قلعة مدينة الجزائر (البنيون) ص 16 .

و لا يوجد على هذه الجزيرة التي تقع على بعد 300 متر من مدينة الجزائر سوى حصن صغير بناه الاندلسيين القادمين من اسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر حيث كان يستعمل كمنارة أو برج مراقبة(51). وفي هذا المكان تم بناء قلعة على شكل مثمّن (52) ومحصنة بحصنين(53) وبعد أقل من عامين أصبح الميناء مراقب من على صرح محصّن يحتوي على قلعتين وأربعة معاقل يربط فيمابينها سور يحتوي على عدة فتحات ، وكان يربض في هذه القلعة حوالي 200 جندي من الجنود المختارين(54). وكان لهذا الحصن مع صغر حجمه أهمية في ذلك العصر . الا أنه كان لهذا الحصن نقاط ضعف عديدة من بينها : احتوائه على أربعة معاقل فقط اثنين منها يطلان على مدينة الجزائر والاثنين الآخرين يطلان على عرض البحر (55). وكان موقعه قريب من المدينة بحيث أن طلقات الاسلحة النارية تصل اليابسة وأن طلقات المدفعية تمر من فوق المدينة من سور الى آخر (56) ومهمة هذا الحصن هي مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون انقطاع واحباط كل محاولات السيطرة على مدينة الجزائر من جهتها البحرية (57). وكان من مهامه أيضا اجبار سكان مدينة الجزائر على احترام من في الحصن ، ومنع القراصنة من استعمال الميناء كملجأ(58).

وحسب الاقوال الشعبية آنذاك فان هذا الحصن كان ينظر اليه كشوكة في قلب كل جزائري (59) .

---

(51) ليسبيس : مدينة الجزائر : دراسة جغرافية وتاريخ خطيطها .ص110.
(52) ميرسيبي : الفن المعماري الاسلامي في المغرب، ص 447
(53) زهرة النيران : (ترجمة روسو) ص 16 .
(54) غرامونت : دراسات جزائرية . ص 5
(55) هابيدو : " من الاسر " . ص 212 .
(56) ليون الافريقي : وصف افريقيا .. الجزء الثاني . ص 348
(57) ساندر رابخ ودنيس :" تأسيس الوصاية على مدينة الجزائر" الجزء الاول . ص 221.
(58) ميرسيير :"تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثاني ص 426.

ولو أن المدينة كانت غير محتلة فان وجود هذه القلة بالقرب منها غير مرغوب فيه ويعتبر اهانة لسكانها ويقول مارمول (60) : أن مدينة الجزائر في عهد سليم كانت تمول الحصن ، ولا نتصور بأي حال من الأحوال أن الجنود الاسبانيين كانوا قابعين داخل هذا الحصن لايبرحونه والمدينة هي أقرب ما يمكن منهم فنزول الجنود الى المدينة وابتزازهم لبعض الأشياء كان يشكل اهانة لكل السكان (61) مما دفعهم الى ارسال رسول الى اسبانيا في ربيع سنة 1515 لاقتراح هدنة مقابل دفع بعض الضرائب للملك ، (62) .

وكان لسليم عدة معارضين ازاء مشروعة القاضي باعلان الطاعة والخضوع للاسبان ، ومما زاد في هذه المعارضة تصرفات الاسبان مع السكان : حيث عاشت مدينة الجزائر منذ سنة 1510 اضطرابات كان سببها اختلاف الآراء حول قضية دفع الضرائب ووجود الحامية الاسبانية قرب المدينة ، وشجع سليم على احترام المعاهدة بحيث أن هذه الحامية كانت توفر لهم الامن والحماية مع أن نبلاء المدينة ومن والاهم كانت آراؤهم مخالفة (63) .

ولنتمعن جيدا كيف كان ديلفوكس ينظر الى الحريات في القرن التاسع عشر : وهاهي مدينة الجزائر خاضعة ، مهددة ، مقسمة وبالتاكيد فقيرة ، لأن قلعة البنيون بمثابة دركي يعوق عملية القرصنة والتجارة مع أعداء اسبانيا ولكن هذا يعتبر قليلا مقارنة بما ضاع من حريات حيث ستدوم هذه الوضعية ست سنوات .

---

(60) مارمول :" افريقيا" OPcité الجزء الاول ص 222 .
(61) ساندر رونج و دنتيس .
(62) ليون الافريقي OP.cit الجزء الثاني ص 348 .
(63) ديلفوكس في المجلة الافريقية XX ص 67 .

عـــروج بـربـاروس :

في هذا الوقت كان البحر الابيض المتوسط مسرحا لانتصارات مدوية أحرزها أربعة اخوان من أصل أحد الجزر اليونانية (والتي بـلا شـك هي جزيرة ليسبوس وكان يتميز هؤلاء الاخوة بالشجاعة ومعرفـة علـوم البحر مما جعلهم قراصنة مهابي الجانب، في البحر الابيـض المتوسط . وبعد دخولهم الاسلام وضعوا أنفسهم تحت، خدمة سلطان استانبول حيث كانوا يقومون بحملات جريئة على شواطىء اسبانيا قصد مساعدة مسلمي الاندلس على الهروب من هذه الجزيرة، وكانوا يملكون حوالي عشـرة سفن عليها حوالي 1000 رجل جاعلين من القرصنة حرفة لهم. وتربطهم بسلطان تونس علاقة تعتمد على اقتسام الغنائم .كماكانوا يمدونـه بالعون . وبعد سنتين من سقوط بجاية في يد الاسبان،جهّز سلـطـان تونس حملة بقيادة الاخوة بارباروس لاسترجاع مدينة بجايـة التـي كانت خاضعة له وبعد حصار مدينة بجاية فشل عروج فـي استرجاعـها وعاد الى تونس بعد أن فقد قسما من أسطوله في معركة مـع دوريـا . وأعاد بناء أسطوله في جيلفيز ، وفي شهر أوت 1514 خرج بأسطـول مكون من 12 سفينة حربية وعلى متنها 1100 تركيوحاصر مدينة بجايـة من جديد دون سابق اذن من السلطان (64). غير أن هذه الحملـة باءت بالفشل مثل سابقتها ، ومرد هذا الفشل حسب أقوال البعـض أن الاهالـي الذين كانوا قد انضموا اليه فضلوا الرجوع الى العمل فـي أراضيهم الزراعية هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان سلطـان تونـس قد تخلّى عن الاخوة بارباروس حسدا علىالانتصارات التي حققها الاخوة بارباروس (65) ، ولجأ عروج واخوانه بعد ذلك الى جيجل حيث قـام بطرد الجنويين (نسبة الى جنوة) منها وأسس مملكة صغيرة .والتحـق به أكثر من 20.000 من الأهالي البربر وقدموا له خدماتهـم لتخليص

---

(64) هاييدوا : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 13 .

(65) ساندر رانج و دنيس : " تأسيس حكومة الوصاية على مدينـة الجزائر " الجزء الاول ص 53 .

البلاد من الكفار (66).ولسنا هنا بصدد سرد حياة عائلة باربا روس الا أننا في هذا الوقت نشير الى أن عروج الأكبر كان يحمل مشعل العائلة التي تتكون من اسحاق وخير الدين بعد موت الياس .
ومن بين البربر الذين انضموا الى عروج نذكر أحمد بن القاضي الذي سيلعب دورا هاما فيمابعد .وينحدر من عائلة أبوالعباس المغبريني العالم بعلوم الشريعة والفقه في القرن الثالث عشر (67)الذي كان يعمل قاضيا لدي آخر سلاطين بجاية ، ثم تمت ترقيته الى رتبة خليفة في المنطقة الممتدة من الصحراء الى جيجل .

وبعد سقوط بجاية عام 1510 تزعم القبائل قصد الوقوف في وجه الغزاة (68) ، ولما جاء عروج الى بجاية التحق به ابن القاضي وأصبح خليفة له وعلى اثر ذلك تولدت صداقة متينة بينهما والتي سيكون لها أثرا ايجابيا على عروج بحيث أن هذا الاخير يقوم بمهاجمة مدينة بجاية من جهة البحر بينما تهاجمها جيوش ابن القاضي المكونة من آلاف الرجال من ناحية البر (69) .

غير أن عبد العزيز رئيس قبيلة بني عباس وعدو ابن القاضي كان قد بذل جهودا كبيرة لفك هذا التحالف بين باربا روس وعدوه ابن القاضي .

ومات فرديناند دارغون في 23 جانفي 1516 أي بعد مدة من فك التحالف بين باربا روس وابن القاضي .

---

(66) نفس المصدر السابق .
(67) ابن خلدون : " تاريخ البربر " ترجمة سلان ، الجزء الثاني ص (418) .
(68) المجلة الافريقية 1873 ص 132 ، الجزء 17 روبين .
(69) النشرة الفصلية رقم 121 . ص 1 و 2 .

وكانت الحراسات ملحة وضرورية في مدينة الجزائر : و أخيـــرا جاءت الفرصة لتحطيم معاهدة الذل والعار وهدم قلعة البنيون وكـان سليم التومي قد فكر بعائلة بارباروس وأعتقد بأنها أفضل من يساعـده في محاربة القلعـة .

وأوفد سكان مدينة الجزائر نحوهم عدة شخصيات بـــارزة (70) لاقناعهم وترجيهم بالقدوم لتخليصهم من مضايقة وظلـــم المسيحييـــن وتهديم هذه القلعة (71) وقبلت عائلة بارباروس هذا الطلب ورأ ت في ذلك فرصة للاستيلاء على مدينة الجزائر الهامة والغنيـــة جـــدا والمأهولة بالسكان وبأنها مريحة ومناسبة لعمليات القرصنة (72).

وتتباين المعلومات حول طبيعة القوى التي اصطحبها عروج معـه في هذه الحملة فوصفها هاييدو بأنها تتكون من 16 سفينـة شراعيـــة صغيرة وصلت من البحر وتحمل على متنها 500 تركي كما أحضر معه المدفعيـة والبارود والمؤونة وأدوات الحرب بينما هو نفسه جاء عن طريق البـــر ومعه 800 تركي مسلحين بالبنادق . و 3000 من الموريون(المغاربـــة الذين يسكنون جبال جيجل ، هؤلاء التابعين كما تبعه 2000 آخريـــن آملين في الحصول على غنائم (73) . حيث يقدر عددهم الاجمالي حوالي 6000 رجل وهو ما يشكل جيشا حقيقيا صغيرا .

وكيف نقبل بعد هذا فشل الحملة خاصة بعد اعترافـــات كـــل الشهود وحتى المناهضين منهم لبارباروس والذين وصفـــوا اقدامـــه وشجاعته في المعركة .

وعدد الجنود المذكور أعلاه يبدو لنا غير مقبول فمؤلف زهـــرة النيرات قال بأن بارباروس قد ذهب مع ثلة من رجاله علـــى متـــن

---

(70) زهرة النيرات" ترجمة ألفونس روسو " ص 14
(71) هاييدو " تاريخ ملوك الجزائر " ص 17
(72) نفس المصدر السابـــق
(73) نفس المصـــدر السابـــق .

سفينتين حربيتين بينما لحق به اخوانه بـ 280 تركي وأربع سفن صغيرة و15 قطعة مدفعية كبيرة (74) وذكر ساندر رانج ودنيس من خـــلال ترجمتهم لغزوات خير الدين بأن خيرالدين كان متسلحا بأربع سفن صغيرة تحمل على متنها عدد كبير من الجنود و 15 قطعة كبيرة من المدفعيـة وأرسلهم تحت قيادة أخيه اسحاق لنجدة عروج (75) .

ويبدو من الاقوال السابقة حول عدد وعدة الجنود أن سفـينتيـن حربيتين وأربع سفن صغيرة هو العدد الاقرب الى التصديق ، وزد علـى ذلك أن هذه السفن كان يجب عليها أن ترسوا في مكانين مختلفيـن على الشاطىء دون أن يكتشفها برج المراقبة في قلعة البنيون (76).

والمؤكد هو أن القسم الأعظم من الجيش الذي كان يقوده عـروج جاء عن طريق البر بينما جاءت التعزيزات والامدادات من جهة البحر تحت قيادة أحد اخوانـه .

وعندما علم سليم التومي بقدوم هذا الجيش خرج لاستقبالـه وتـم اللقاء على بعد مسيرة يوم من مدينة الجزائر (77) .

ولكن كان على عروج أن يساوي بعض حساباته مع أحد أصدقائـه القدامى قبل دخوله مدينة الجزائر ، وكان يحكم شرشال آنذاك أحـد القراصنة الذي رأى فيه عروج خطرا على مدينة الجزائر ، بحيث يجـب التخلص منه أولا .

وهنا أيضا اختلف المؤلفون وحسب هايبدو فان هذا القرصـان الذي عاصر عروج يسمى كارا حسن . غير أن الغزوات ستتكلـم عـن كارا حسن الذي نال جزاءه وعقابه من طرف خير الدين بعد 12 سنـة

---

(74) زهرة النيرا ت ص 15
(75) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية" ص 64.
(76) هايبدو : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 23
(77) ساندر رانج ودنيس " تأسيس حكومة الوصاية " الجزءالاول ص 37 .

من فشله في حملته ضد القبائل ؟ وهنا يطرح السؤال ، هل أن كـــارا حسن المذكور سابقا هو نفس الشخص ؟ أم أنهما شخصين مختلفين ؟ وفي كلتا الحالتين نتكلم عن القرصان كارا حسن الذي حكم مدينـــة شرشال ، ومن جهتنا فاننا نأخذ برأي هايبدووالذي أعطانا كل الأسباب.

أولا أن شرشال تحتوي على ميناء قابل للتوسيع وبأقل تكلفة،فأراضي شرشال الريفية خصبة ، كذلك تحتوي جبالها على مواد كثيرة لبناء السفـــن البحريـة ، وأخيرا فهو أقرب طريق للذهاب الى جزر البليار واسبانيا بحيث تقطع هذه المسافة في مدة 20 ساعة ، وهذه العوامل جعلت كارا حســـن يفكر في أن يصبح منافسا لعروج في شهرته وقوته نظرا لانتصاراتـــه البرية والبحرية . ودائما حسب هايبدو فان عروج كان لا يـرضـي أن ينافسه رجل آخر .ولهذه الاسباب قرر عروج مباغتة خصمه وطرده قبـل أن يصبح قويا (78) ، ويتفق ليون الافريقي (79) مع هايبدو علـى أن شرشال قد خضعت لبرباروس ولاسيما عروج .

كما اتفق مع هايبدو (80) في رأيه كل من غرامونت وكذلـــك بونـو (81) وميرسيي (82) .

وبعد نجاح الحملة التأديبية التي قام بها عروج ضد شرشال دخل مدينة الجزائـر .

ولم يهتم المؤرخون العرب بســـرد اسبانيا فشل عـــروج فـــي محاولته الاولى في 12 أوت 1516 (83) .

اننا ندرس اذا رواية هايبدو التي تعتبر أقرب الى التصديـــق منها الى الخيال . وأراد عروج غداة وصوله اقناع سكان مدينة الجزائـر بأنه أتى لتخليصهم من المسيحيين .

---

(78) هايبدو OP.cit ص 19.

(79) ليوفن الافريقي : وصف افريقيا ـ الجزء الثاني ص 345

(80) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 22

(81) سالفاتور بونو " قرصان بربري " ص 17.

(82) ميرسيي : " تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثالث ص 16 .

(83) بيربروغر : قلعة النبون لمدينة الجزائـر " ص 20

وباشر يحفر خندق ونصب مدفعيته مقابل القلعة وبدأ الهجوم عليها (84) ، ودائما حسب هاييدو فان هذه الطريقة هي طريقة القرصان المتهور والتي تعتبر في كل الحالات طريقة سيئة .

وكان سكان مدينة الجزائر ينظرون اليه بمثابة المخلص لهم من ظلم المسيحيين . وبهذا الاسلوب فانه يعبر عن انتقامه لفشله مرتين سابقا أمام بجاية . وهنا لا يوجد سوى حصن واحد مقابل مدينة كاملة . وبعد المناوشات الكلامية بينه وبين جنود القلعة فتح عروج النار عليهم ، غير أن ضعف مدفعيته منعته من تحقيق نتائج مرضية ، وبعد 20 يوما رأى سكان مدينة الجزائر بأن عروج لم يحقق أي تقدم وأن مجيئه لم يخدمهم في شيء ، ولم يحتمل سكان المدينة تصرفات الاتراك لممارستهم العنف والسرقة وغطرستهم مما زاد الوضع سوءا (85) .

ولم يتحمل سليم غطرسة الاتراك وسوء معاملتهم له : مما أغضب السكان وجعلهم يتحدون ضدهم . واذا أراد عروج أن يحافظ على مكانته عليه أن يعمل بسرعة حتى يكسب ثقتهم به .

فعلى عروج أن يتخلص من سليم ، وقد اختفى هذا الاخير بالفعل حيث وجد مقتولا في داخل حمامه (86) ، ويرجّح أن عملية قتله قد حدثت في قصره المسمى الجنينة (87) وبعد تخلصه من خصمه سليم نصب عروج نفسه ملكا على سكان مدينة الجزائر . وحتى يثبت حكمه قام بصك العملة ، وعمل بعد ذلك على تقوية وسائل دفاع المدينة . واعتبر نفسه أنه غير ملزم باحترام المعاهدة السابقة المبرمة مع الاسبان ، فعمد الى فرض مراقبة شديدة على نبع الماء بحيث لا يسمح لحامية القلعة والسفن بالتزود بالماء . لذا يتوجب عليهم جلب الماء من مايوركا (88).

---

(85) هاييدو :" تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 20

(86) المجلة الافريقية XVII ص 315

(87) بيربروغر في المجلة الافريقية XV ص 386

(88) بيربروغر : قلعة البنون لمدينة الجزائر ص 31 .

ان الارشيف الاسباني يحتفظ بالرسائل اليائسة التي بعثها نيكولاس الخامس حاكم الحصن والتي يذكر فيها أنه في تاريخ 8 أوت 1516 لم يكن يوجد أكثر من 15 قربة من الماء لمؤونة أكثر من 200 شخص محاصرين داخل قلعة البنيون .لذلك كان مرغما على الذهاب بنفسه الى مايوركا للبحث عن الماء والبسكويت وطعام آخر (لأنه كما هو معلوم لا يستطيع الاسبان الدخول الى مدينة الجزائر) كما يلزمهم المال لدفع مبلغ 1286 " ديوكاتس "لقادة السفن مع العلم أن سكان مدينة الجزائر لا يدفعون مثل هذه الضرائب .

وفي تاريخ 15 أوت استمر نقص الماء في قلعة البنيون بحيث مات أشخاص بعد أن خلطوا الخمر بماء البحر وشربوه أو نتيجة لأكل خبز تم صنعه بماء البحر ، 150 فردا رجالا ونساء يقيمون في الجزر القريبة من الحصن تم اجلاؤهم . ورغم هذا الاجلاء فان من يبقى سيموت من العطش اذا لم تحمل اليهم السفينة القادمة من مايوركا بعض البراميل من الماء . وكان الحل عندهم أن يقفزوا الى الارض في النهار حيث ينعدم وجود الماء ويموتون في قتالهم مع المغاربة أفضل مما يموتون عطشا .

وقد بقي 200 رجل من رجال الموقع ولكننا لا نستطيع الاعتماد الا على 100 رجل منهم (أما الآخرون فقد كانوا من الفلاحين المايوركيين ولم يكن لديهم أسلحة حيث كانت تبدو وكأنها مخبأة في الحفر (89) وخلال هذا الوقت كان عروج يحصّن مواقعه ..

ودائما حسب الرسائل الاسبانية التي أعلمتنا بأن هناك مدافع جزائرية : حيث قام عروج بقدر ما استطاع من التحصينات تبعا لوصف السرايا المدفعية :

- مدخل باب الواد (باب العرب ، يوجد منجنيق وقذافة حربية تجرها عجلة نقل (طمبر) .

---

(89) بيربروغر : OP.CIT ص 32 .

- من جهة البحر : يوجد قطعتين حربيتين تزن الاولى 12 ليبرة والثانية 8 ليبرات ، (الليبرة = 500 غرام).

- في مستودعات الأسلحة : منجنيق يمكنه اطلاق قذائف تزن الواحدة 30 ليبرة من الحجارة .

- الى الامام باتجاه صحن البرج : منجنيقين تزن قذيفة الاول 14 ليبرة والثاني 9 ليبرات (وهما لا يقذفان كثيرا من ذلك المكان ، لان الاسبان لم يتركانها تستقر ويطلقون النار على مقدمتها)، كما يوجد كذلك أربع فرجات في الحائط بحيث لا يتم اطلاق النار منها.

- فيزاوية البرج الخلفية : يوجد مدفعين تزن قذيفة الاول 55 ليبرة والاخرى 20 ليبرة .

- في المقدمة الى الامام يوجد كوة (فتحة) لمنجنيق آخر والذي يطل على طرف الجزيرة ويصل وزن قذيفته الى 20 ليبرة .

- مدخل باب عزون : منجنيق في المدخل واثنين في الاعلى .

- في أعلى البرج يوجد منجنيق ومدفع تزن قذيفته (2) ليبرة ويزن هذا المدفع 675 كيلوغرام وطوله 3.50 متر) .

- ومنجنيق آخر في داخل برج جيبيل (GIBILE) بدون شك أحد أشهر الابراج في القصبة : منطقة الجبل) .

- منجنيق آخر على السور الملامس لحقل الكروم بالقرب من الطريق القادم من مليانة (90) .

في 12 أوت هاجم عروج بدون نجاح من جهة أخرى ، وخلال هذا الوقت وبناء على طلب مستعجل من التحصينات ، كان هناك حملة قد تم تجهيزها في وهران .

---

(90) بيربروغر : رسالة نيكولاس الخامس المذكورة في قلعة الجزائر ص 35 .

وقد تكلمنا كثيرا عن تأثير يحيى بن سليم التومي في تنظيم هذه الحملة . وروى هايدو بأن ابن الشيخ الشاب كان قد بعد اغتيال والده في وهران حيث وضع تحت الحماية الاسبانية ، وشجعوه على تجهيز حملة تأديبية كي ينتقم لأبيه .

والحالة هذه فان الوثائق الاسبانية في ذلك العصر تثبت بأنه لم يكن هناك شيء . فسليم التومي لم يكن حليفهم تماما كما أن موقعه لم يكن دائما واضحا .

وقد وصلت رسالة من دييغو دو فيرا مؤرخة في 1516/08/18 الى مدينة الجزائر تتحدث عن حملة تأديبية موجهة الى ابن الشيخ الذي تم اغتياله مما يبرهن على أنهم ظلوا في المدينة ولم يحدث شيئا للأعداء أبدا ومن المحتمل أن عروج قد تصالح مع عائلة الضحية بتدخل من الولي المسلم سيدي عبد الرحمن خليفة عالم اللاهوت في القرن الخامس عشر نسيب قبيلة ثعلبة ، بحيث أن ابنته كانت متزوجة بالابن البكر لأمير وأسرة هذه القبيلة (91) .

وبالمقابل فان الحملة مبرّرة تماما بواسطة القلق الذي أثاره وصول عائلة بارباروس الى مدينة الجزائر ، وقلة الموارد واللوازم في قلعة البنيون ثم الخوف من فقدان وخسارة هذا الموقع الاستراتيجي الهام .

حملة دييغو دو فيرا :

غادر الاسطول الاسباني قرطاجنة في 30 سبتمبر سنة 1516. وأنه من الصعب مرة أخرى تقدير أهمية هذه الحملة من خلال الوثائق الاسبانية ، فحسب مخطوطه " زهرة النيرات " فان الحملة تتكون من 320 سفينة حربية وسفينة نقل وتحمل على متنها 15000 مقاتل(92)

---

(91) نفس المصدر السابق ص 9 و 35 .

(92) زهرة النيرات ـ ترجمة الفونس روسو ـ ص 17 .

أما مترجم هذه المخطوطة ألفونس روسو فقد كتب مصححا بأن الحملة تتكون من 60 ـ 80 سفينة شراعية تحمل على متنها من 8000 ـ 10.000 رجل .(93). ولكن بالاعتماد على الوثائق الاسبانية فقد اعتبر بأن الحملة التي قادها دييغو دو فيرا كانت تتكون من حوالي ثلاثين سفينة تحمل على متنها 1000 جندي و 2000 من البحارة (94).

وقد رسى هذا الجيش بشكل فوضوي بالقرب من الشاطىء مما جعل العدو يتنبه ويأخذ استعداده . هذا ما ذكره حاكم قلعة البنيون نيكولاس الخامس في التقرير الذي لم يصل الى دييغو دو دوفيرا قائد الحملة العسكرية (95) . وأضاف أيضا وأمام هذه الفوضى وعدم التبصر فان هؤلاء الجنود الاذكياء من الاتراك قاموا بتجميع كميات كبيرة من المؤونة والذخيرة وجمعوا حولهم عدد كبير من المغاربة الذين باستطاعتهم المحاربة ضد أكبر الجيوش (96). ان نيكولاس الخامس سيعرف بنفسه الاماكن التي يجب القتال منها . فقد اختار صخرة كبيرة بالقرب من مدخل باب الواد ، يستطيع المهاجمون الاختفاء خلفها تماما كما أن حمايتهم من الخلف مؤمّنة (مضمونة) (97) . وخلال هذا الوقت كانت المدفعية الموجودة على الجزيرة تدك المدينة . لكن دييغو دو فيرا رفض هذه الخطة وفضل مهاجمة المدينة من الاعلى بحيث يسمح فقط بالقصف على المناطق المرتفعة وهذا يجعل تأثير المدفعة الموجودة داخل القلعة قليلا وبعيدا .

وزيادة على ذلك فقد ارتكب خطأ خطيرا بتقسيم رجاله الى أربع فرق ومهاجمة المدينة من أربع نقاط مختلفة .

---

(93) زهرة النيرات ـ ترجمة ألفونس روسو تحت عنوان أخبارحكومة الوصاية على مدينة الجزائر ـ ص 17 .

(94) بيربروغر : " قلعة مدينة الجزائر " ص 38 ـ 39

(95) رسالة نيكولاس الخامس التي ذكرها بيربروغرفي OP.cit ص 44.

(96) نفس المصدر السابق ص 44

(97) نفس المصدر السابق ص 45

وقد انزعج عروج من الجيوش المرابطة تحت الاسوار وكعادته قرر الهجوم عليهم وأخذهم على حين غره ومباغتتهم بسرعة . ولم ينتظر حتى يهجموا عليه بل خرج فجأة ووجد المخيم بلاقائد وبلا حراسة فهجم عليهم وعمل مذبحة في صفوف الآعداء . وقد أعطى هذا الهجوم الناجح نفسا جديدا لمواقع الدفاع اليقظة والخائفة في نفس الوقت (98) . واقتحمهم عروج بسهولة وعمل فيهم تقتيلا حتى تعب . وأجبر دييغوا دوفيرا وابنه على الاختباء جزءا من النهار بين الصخور قبل أن يتمكنوا من النجاة بأنفسهم والالتحاق بسفنهم .وأحرز الولد الاكبر (البكر لعائلة بارباروس نصرا كبيرا مما جعل سلطته قوية وثابتة في المدينة).

لكن الجماعات التي أحضرها عروج معه كانت خليط من البلدان التي تم الاستيلاء عليها . ولا ننسى أن عروج هو قبل كل شيء قرصان من قراصنة البحر وأن جماعته هم مجموعة وليس جيشا منظما . فبرجوازيو مدينة الجزائر فقدوا عقولهم ، هؤلاء التجار الهادئون المسالمون رأوا وفي عيونهم الهلع والخوف هذه الجماعات الشاذة الغريبة والغير متجانسة تتسكع في شوارع مدينتهم وهي تشكل تهديد ا لنسائهم وبضائعهم وقلعة البنيون مازالت في يد الاعداء . فماذا فعل هؤلاء التجار ؟ هل قاموا حقا بفتح محادثات مع الاسبان ؟ (99) الاحتمال الاكبر هو أنهم اتفقوا مع قبائل المتيجة وقاموا بتدبير مؤامرة في الخريف ضد عروج وجماعته : فقد دخل رجال القبائل الريفية الى المدينة وهم مسلحين وساعدهم في ذلك وجود الاسواق المعتادة وبينما كان بعضهم يقوم باحراق سفن القراصنة التي سحبوها فوق شاطيء باب الواد وعلى مصب واد مراسل ، كان الآخرون يهاجمون رجال عروج داخل المدينة .

---

(98) زهرة النيرات ص 16

(99) هابيدو " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 22 .

لسوء حظهم فان عروج كان رجل المهمات الصعبة ، ففي يوم الجمعة عندما كان الاعيان والاشراف والمسؤولين عن المؤامرة مجتمعين في المسجد أثناء وقت الصلاة ، أغلق عليهم عروج الابواب وأوقع هؤلاء الجناة في الفخ وقطع رؤوسهم ورماهم في الشوارع . وهكذا سواء بارادتهم ومشيئتهم أو رغما عنهم أصبحوا خاضعين ومطيعين (100).

نحن في سنة 1517 في هذا العالم الواسع الارجاء ، فبينما كان سليم الاول في القاهرة وشارل الخامس يتوج ملكا على اسبانيا كان عروج في مدينته الصغيرة يحضر للمستقبل بتحصين وتسليح وتنظيم المدينة وكان أخوه خير الدين مقيما في دلّس آخذا على عاتقه تنظيم المقاطعة الشرقية بمساعدة رئيس القبائل ابن القاضي .

غزو تلمسان وموت عروج :

ان سيطرة القراصنة الاتراك على مدينة الجزائر لا يمكن أن تستمر دون أن تقلق جيرانها .

ونظر ملك تنس حميد العيد الذي شهد نكبة سليم التومي عندما خضعوا للاسبان بعين مملوءة بالحقد تجاه عروج ووجوده في مدينة الجزائر . وقام بتجهيز حملة ضده ، وكعادته فان عروج لم ينتظر بل مشى لملاقات خصمه حميد العيد وباغته على حين غرة في عقر داره ولكنه لم يكن يثق بعد بأمانة وصدق اداريه وساسته ، فقبل سفره لملاقات خصمه استدعى أخيه خير الدين من دلس وعهد اليه القيام بحكم المدينة في غيابه ريثما يعود ، ثم بعد ذلك أخذ احتياطه وحذره ضد المتمردون العصاة وذلك بأن أخذ معه ما يقارب العشرين من الوجهاء والاعيان كرهائن . وبهذا فقد ارتاح فكره وتفرغ لقيادة وتنظيم حملته .

---

(100) نفس المصدر السابق ص 24

ونتذكر باختصار مراحل هذه الغزوة والتي كانت نهايتها سيئة لبكر عائلة بارباروس :

- التقى عروج مع جيش ملك تنس في سهل الشلف وانتصر عروج في هذه المعركة واحتل تنس في جوان (1571) .

- وفد عن سكان تلمسان جاء يطلب المساعدة والحماية ضد السلطان أبو حامو الذي تحالف مع الاسبان ضد سلطانهم الشرعي أبوزيان(101).

- عروج يمشي الى تلمسان حيث استلم الحكم بعد أن قتل أبوزيان .

- حاصر الاسبان والخونة الموالين للملك المهزوم عروج ، واستطاع هذا الاخير الهرب لكنهم لاحقوه وقتلوه في ماي 1518 ولا نعرف بالضبط أين قتل هل هو في تلمسان أو في جنوبها ؟ وذلك رغم كل الابحاث التي قام بها الباحثون والتي انصبت كلها على هذا السؤال الهام جدا (102).

خير الدين :

ان موت عروج شكل خسارة كبيرة وثقيلة جدا . الجيوش الاسبانية بقيادة ماركيز دو كوماريز يبدو أنها أرادت متابعة سيرها حتى مدينة الجزائر لاتمام نصرهم ... مدينة الجزائر التي كان خير الدين محروم فيها من أحسن الفرق (الجيوش) التي كانت تابعة لعروج ، وقد حلم خير الدين بكل جدية بالابحار ثانية الى دلس أو جيجل تاركا سكان مدينة الجزائر لقدرهم الحزين (103) .

---

(101) ليون الافريقي OP.cit الجزء II ص 324 وواتيلد في المجلة الافريقية رقم XVII ص 357 .

(102) عن هذه المشكلة قرأ بيربروغر في المجلة الافريقية ص 25 وقلعة مدينة الجزائر ص 58 ، واتيلد في المجلة الافريقية XVII ص 353، هاييدو " تاريخ ملوك الجزائر" ص 33.

(103) هاييدو: " تاريخ ملوك مدينة الجزائر"ص 35 ، وواتيلد في المجلة الافريقية XVII ص 356 .

لكن الجنود والقراصنة سخروا منه وكذلك كل الذين استطاعوا الفرار بعد هزيمة عروج وكل الذين جاؤوا متطوعين من أجل الملك(104).

وهاهو يتصرف بحرية وحسب طريقته من أجل الحفاظ على المدينة ومدعما في ذلك باجماع الامة .

ان الوضع سيىء للغاية : فقد تخلى ابن القاضي الحليف القبائلي عن الصفوف ، وتحديد أسباب هذا التخلي صعبة : هل كان اتهامه بالخيانة أثناء سير المعركة ظلما أو أنه شعر بأن هذه الوشاية هي تهديد مباشر له ؟ (105) . هل كان مدفوعا من سلطان تونس الذي يرغب في فك هذا التحالف مع باروس الذي أصبح قويا جدا (106) ، أو ببساطة أنه لم يغفر أبدا لموت سليم التومي الذي كان أحد أقربائه ؟ (107) .

ومهما يكن الأمر فقد انسحب الى جباله والتفّت حوله قبائل آيت يحيى ، أيت بوشايب وآيت فراوسن (108) . وقام بتحصين مملكته مملكة الكوكو التي لم تدم الا قليلا حتى في عصر ازدهاره وفخامته كقرية ريفية يسكنها 1600 نسمة ، والتي تجثم على الصخور الوعرة ، بحيث جعلت الدفاع عنها سهلا (109) ، لكنها كانت مجهزة بجيش مهم جدا قوامه (5000 رجل يحملون سلاحا و 1500 حصان) وذلك لحفظ النظام في الداخل والقيام بحملات وغزوات في الخارج .

---

(104) هايبدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 35.
(105) بوليفا : " جرجرة عبر التاريخ " ص 124
(106) ساندر رونج و دنيس : تأسيس حكومة الوصاية ص 189
(107) ماسكاري : النشرة الفصلية رقم 121 ص 10 .
(108) نفس المصدر السابق .
(109) مارمول : " افريقيا " ـ الجزء الثاني ص 221 .

في هذه الاقطاعة (منطقة النفوز) خضع للمحاولات السرية الاسبانية المستعجلة .بحيث رغبوا بالشروع في محادثات التحالف معه يفرضون عليه من خلالها التحلي عن باربا روس (110).
فبعد أن كان بن القاضي حليفا فعالا لخير الدين أصبح الآن عدوا لدودا يشكل تهديدا دائما له .

وفي هذه الظروف الصعبة وأمام هذه الأخطار الكثيرة فان ذكاء خير الدين جعله يفهم بأنه يحتاج الى مساعدة قوية .

وفتح سليم الاول سلطان استانبول مصر وقدم نفسه للناس على أنه وريث الخلفاء الكبار والعظام .

ومن الطبيعي جدا بالنسبة لمدينة اسلامية مهددة من قبل المسيحية أن تضع نفسها تحت حماية أمير المؤمنين لذا فقد طلب خير الدين من السلطان العون والمساعدة مقابل الاعتراف بسلطته ، ودفع ضريبة أو ضمان زيادة قوة الاتراك في بلاد البربر (111) ، لهذا أرسل الحاج حسين " الشخصية المعتبرة " الى استانبول ومعه مجموعة من السفن الحربية تتكون من 4 سفن محملة بالهدايا الثمينة (112)، ليحمل اقتراح حمايته واعلان باربا روس تبعيته له .

وها نحن نعود ثانية الى التواريخ المختلفة للمؤرخين الذين يروون ويصفون هذه الأعمال . فالغزوات وزهرة النيرات التي تستوحي بوضوح من الغزوات قد ذكرت تاريخا هو 926 هجرية الموافق لسنة 1520 م ، مما يجعلنا نضع هذه الخطوات بعد الهجوم الاسباني بقيادة هيجو دو مونكاد سنة (1518) حيث لم يكن سليم موجودا في ذلك التاريخ 1520 ، بل السلطان سليمان هو الذي كان يحكم في

---

(110) بوليفة OP.cit ص 125 .
(111) هاييدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 35 .
(112) زهرة النيرات : " سليمان العظيم " ص 141 .

استانبول ، ونفس الوقائع التاريخية تتحدث عن السلطان سليـــم ، أما فيمايخص المعلومات التي استطعنا أن نجدها في العصر الحاضر مستشيرين بذلك المؤلفين الذين يذكرون تاريخ الامبراطورية العثمانية وهي كمايلـي : في سنة 1518 بعد شهور قليلة من موت عروج ، تعرف خير الدين على سليم الاول (113) .وفي السنة الموالية أي سنة 1519 في الخامس عشر من شهر ماي ، ثم قبول الاقتراح الذي قدمه خيرالدين الى السلطان ودخلت المدينة تحت الحماية العثمانية (114) .

اننا نتخيل جيدا كيف تلقى السلطان هذا الاقتراح الـذي ينـص على الحاق جزء من الساحل المغربي ، هذا الجزء الذي يتمتع بامكانيات استراتيجية في قلب أراضي حوض البحر الابيض المتوسط .(115)

وسيرسل السلطان قريبا 2000 جندي من الجنود الانـكـشـاريـيـن الاسطوريين وهم من خيرة مقاتلي الجيش التركي (116). وكـذلـك سيبعث مدافع ووحدة عسكرية تتألف من 4000 متطوع (هؤلاءالمتطوعون غالبيتهم من الطبقات المسحوقة (117) ، دفعهم الى ذلك الاغـراءات المقدمة لكل من يريد الذهاب الى بلاد البربر ، وهذا يعنـي حقـوق الامتياز التي أعجبت وأفرحت هؤلاء " الانكشاريين " . وبالاضافة الى ذلك فقد أصدر السلطان فرمانا (أمرا سلطانيا) يوضح فيه بأنه قبل ولاء الجزائريين له ووافق على حمايته لهم وأنه يعتبرهـم مـن الآن فصاعدا في قائمة المخلصين الأمناء (118) .

وقد أقلق وضع مدينة الجزائر تحت حماية السلطان جيرانها سواء من المسلمين أو المسيحيين ، وقبل وصول الجؤاب من استانبـول الـى تلمسان وتونس ووهران وبجاية كانت هذه المدن قد هاجت وثارت ،

---

(113) أندري كلوت : " سليمان العظيم " ص 141 .
(114) الموسوعة التركية ، الجزء الاول ص 324 .
(115) أندري كلوت : " OP.cit " ص 141 .
(116) نفس المصدر ص 391
(117) واتبليد في المجلة الافريقية عدد XVII ص 288 و 289 .
(118) ساندر رانج ودنيس " تأسيس حكومة الوصاية " ص 134 .

بينما كانت قبائل بن القاضي القاطنة في جبالها تخضع لضغوطات من قبل تونس وبجاية لحمل السلاح ضد مدينة الجزائر ، كما أن الاسبان المتواجدين في مدينة وهران جهزوا حملة بحرية يدعمها ملك تلمسان بجيشه من ناحية البر .

ونجح خير الدين في تجميع الأراء خلال شهور قليلة ، بحيث اجتمع ضده الحفصيين ، القبائل ، الاسبان والزيانيين .

حملة هيغو دو مونكاد :

لقد فقد سكان مدينة الجزائر عقولهم وصوابهم وأرادوا القرار حاملين معهم ثرواتهم ونساءهم وأطفالهم ، لكن بارباروس منعهم من الخروج من المدينة وجهز مواقعه وتحصيناته (119). وهو لا يمتلك جيشا كبيرا وخاصة بعد الهزيمة والخسارة التي مني بها عروج . ويتكون جيشه من خمسة الى ستة آلاف رجل فقط سيحاربون الجيش التلمساني الذي جاء من البر ، ويقفون في وجه أسطول هيغو دو مونكاد البحري الذي يضم 30 سفينة ، 8 سفن حربية وبعض القوارب التي ظهرت في ميناء مدينة الجزائر ، وفي 17 أوت 1518 (وهي المرة الوحيدة التي يتفق فيها المؤرخون على الارقام) ، لمح خير الدين قوارب الكفار وهي تتقدم دفعة واحدة وأشرعتها مرفوعة . وكان قد اكتشفها في منتصف النهار وعند (الساعة الرابعة مساء) وعرف بأنها كانت قد رست بالقرب من الشاطىء (120) . وقد بعث قائد الحملة رسالة تحذير الى خير الدين يطلب منه الاستسلام ، فرد خير الدين عليها بجرأة وأنفة " السيف هو الذي يحكم بيننا ، والذي ينتصر فينا يكون جديرا بحكم هذه المدينة" (121) .

---

(119) نفس المصدر السابق ص 106 .
(120) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية " ص 107 .
(121) نفس المصدر السابق ، الجزء الاول ص 108 .

وبينما كان مستعدا للقتال كانت الجيوش الاسبانية تنزل وتحاصر المدينة بعد أن انقسمت الى قسمين الاول يهاجم المدينة من الغرب من منطقة كوديات الزابون (KOUDIAT ESABONE) والآخر من جهة الجنوب ، بينما اصطفت القوارب الحربية في صف واحد أمام المدينة وهكذا أصبحت مدينة الجزائر محاصرة من البر والبحر .

ولحسن حظ المدينة فان القائدين الاسبانيين هيغو دو مونكاد وغونزالفو دو ريبيريا لم يتفاهما فيمابينهم (122) ، فالأول يريد الهجوم مباشرة ، أما الثاني فقد فضل الانتظار لحين وصول جيش تلمسان لتدعيمهم ، وهذا الأخير سواء كان قد تأخر أو أن أبو حامو قد عدل في اللحظة الآخيرة عن مساعدة المسيحيين ضد المسلمين فانه لم يصل لمساعدة الاسبان .وهكذا فقد أضاع الاسبانيون وقتهم الثمين بحيث استغله خير الدين من جانبه بشكل ناجح .

فقسم جيشه الذي يتكون من 5000 رجل الى ثلاثة أقسام تاركا 300 تركي و 300 مغربي داخل المدينة لحمايتها . وقبل أن قرر الاسبان الهجوم كان خير الدين قد سبقهم بقرع طبول الحرب ، وأعطى أوامره بالهجوم .

وهاجم العدو في حصونه ومواقعه وأحدث في صفوفه مذابح ومجازر بحيث استطاع 6000 رجل من بين الـ 20.000 رجل الذين نزلوا الوصول الى الشاطىء تحت حماية مدافع سفنهم (123) . (ونلاحظ أن هاييدوا ومن بعده غرامونت لم يذكروا سوى 5000 جندي اسباني. وهذا الرقم هو الذي نحتفظ به ، لأن ارقم 20.000 يبدو لنا كبيرا جدا بالنسبة الى أربعين سفينة التي تكلّم عنه كل المؤلفون. وبشكل نسبي نستطيع القول أن ثلث جيش العدو تقريبا استطاع النجاة) .

وفي أثناء ذلك هبت رياح عنيفة فاضطرب البحر وصارت الأمواج متلاطمة مما جعل وصول المسيحيين لسفنهم مستحيلا .

---

(122)بيربروغر بواسطة لوبيز دوغومارا "فلسفة مدينة الجزائر" ص 72.
(123) ساندر رانج ص 109 .

لذا فقد تحصنوا واختبأوا كيفما اتفق لهم ، لكن خير الدين نقل بعض المدافع الكبيرة ودكّ مخيمهم خلال 48 ساعة . وهدأ البحر في اليوم الثالث ، وأبحر بقية الجيش ، الا أن هناك عاصفة رهيبة مازالت باقية أدت الى رمي 26 سفينة على الشاطىء (124)، قبل أن استطاعت الابحار في عرض البحر .

وذكر المؤرخون العرب بأن سكان مدينة الجزائر أسروا 3036 عبدا من المسيحيين الذين نجوا من الخطر ، وهذا ما يبين لنا بأن عدد العبيد يمثل نصف الجيش الاسباني الذي شارك في المعركة .

وسوف يمارس خير الدين الذي تخلص من الخطر حالا نشاطه لاظهار موهبته في تنظيم ورئاسة الدولة .

في 15 ماي 1519 وصل جواب من السلطان مع الوفد الذي أرسل في السنة الماضية الى استانبول والذي تأخر في طريق العودة (125). ولا نعتقد بأنه تم الموافقة على اعطاء بربروس لقب بيلارباي لأنه لقب غير عادي حيث لا يوجد سوى ثمانية أشخاص فقط يحملون هذا اللقب في كامل أرجاء الامبراطورية (126). وهذا يعني أن حامل هذا اللقب سمّي رئيس مقاطعة ، ومدينة الجزائر صغيرة ولم تصل الى مرحلة المقاطعة أو الاقليم بعد .وزيادة على ذلك فاننا فهمنا خطأ بأن السلطان يستطيع منح لقب الى شخص مغامر لم يثبت براهينه بعد ، والا فان بعض الحملات والغزوات الناجحة في الاراضي الاسبانية والاعمال الدقيقة المنظمة على الساحل لم تكن دائما متوجة بالنجاح : (مثل الاخفاق أمام بجاية وأمام قلعة البنيون ، وهزيمة تلمسان) .. بحيث أن الباب فتح بسرعة أمام الاقتراح بشأن وضع المدينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام تحت حماية السلطان .

---

(124) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 39

(125) ساندر رانج ودنيس : OP.cit ص 135 الجزء الاول .

(126) مانلو " الدولة البربرية " ص 57 .

ولكن جاءت الموافقة من هناك حالا باعطاء لقب بيلارباي الى رئيس هذه المدينة الذي لا نعرف بعد فيما اذا كان قد بقي على الحالة نفسها فوق هذه الارض التي تم اكتسابها مؤخرا والتي ستخفض من شأن التنظيم الصحيح للامبراطورية العثمانية في أوج صعودها وازدهارها .

وقد بينت الموسوعة التركية تاريخ تسمية باربا روس بلقب بيلارباي ، وهذا التاريخ هو سنة 1534 (127) . وهو ما أكده لنا هامار في كتابة تاريخ الامبراطورية العثمانية (128) الذي وصف فيه الاستقبال الذي خصّ به خير الدين في استانبول بهذه المناسبة (مناسبة منحه لقب بيلارباي) ، ويبدو لنا هذا أكثر منطقيا ، فهو لقب من الألقاب الكبيرة والمتميزة في الامبراطورية والذي لا يمكن منحه بوساطة رسول أو مبعوث ، فالحاصل عليه يجب أن يأتي بنفسه للبحث عنه .

ونحن نعرف بأن الباب العالي قد جعل مدينة الجزائر في ذلك الوقت تحت حمايته ، ولكنه لم يعتبرها بعد كولاية من احدى ولاياته .

وهذا ما يفسر غياب وساطته وتدخله ، حيث كانت دهشتنا كبيرة وكأننا في حلم عندما احتل القبائل المدينة بعد عدة سنوات .

ومهما يكن فان حماية السلطان كانت مضمونة لباربا روس وأكسبته ثقلا وصلاحيات رئيس دولة .

وقبل كل شيء فقد انشغل باربا روس بمدينة الجزائر لجعلها دولة بحيث عانت المدينة من حصارين هامين خلال سنتين .

فأعاد بناء السور القديم : ولهذا فقد تم رصّ الحجارة التي جلبت من تامونفوست (روسيفينيا القديمة RUSGUINIAE) التي انتصبت فيها الأثار على طرف الخليج (129). كما بنى أيضا

---

(128) ليون الافريقي OP.CIT الجزء الثاني ص 325

(129) نفس المصدر السابق = = =

الاسوار من القرميد النيء مجمعا بواسطة ملاط جيد يتكون من خليط من الكلس الدهني والتراب الأحمر ومن رمل المحاجر (المقالع)مرتكزة على قاعدة من حجارة الفليس ، وفي بعض الأحيان فوق الحائط الروماني القديم حيث نجد الحجارة من الحجم الكبير(130)وارتفعت الاسوار الى 11 ـ 13 متر ودعّمت بحفر خندق خارجها .
كما بنيت المساجد : فالكتابة التي وجدت داخل مسجد جمعة الشاووش تبين لنا تاريخ بناؤه سنة 1520 . هذا الجامع المبارك الذي بناه في سبيل الله السلطان البطل خير الدين (131) .

وارتفعت المنازل أيضا لاسكان كل القادمين الجدد ، واحتفظ الاسبان دائما بقلعة الميناء ، الا أن مدينة الجزائر تجاهلتهم واحتقرتهم وامتلأت بالنشاط واستعادت القرصنة نشاطها وبدون توقف كان القراصنة يجهزون حملات متتالية ليحملوا معهم المسيحيين الذين يعيشون في مدينة الجزائر والراغبين في الفرار والعودة الى اسبانيا ، وكذلك كانوا يحملون معهم العبيد والغنائم .

الحرب ضد القابئل :

ولكن من جهة أخرى يجب تسوية المشكلة مع أحمد بن القاضي والذي لن يصفح عنه خير الدين حيث يعتبره هو المسؤول عن موت أخيه . واتهمه بصراحة بأنه هو الذي تسبب في موت أخيه وطمع في أن يفلت عروج من يد الاسبان اذا لم يكن هو الذى طلب منهم تركه واهماله (132) ، وقد اغتنم خير الدين حماسته وفرحته بالنصر الذي أحرزه فشيد مستوطنة تتكون من الانكشاريين وسلحهم بحيث أرسلهم الى بلاد القبائل لمهاجمة بن القاضي في عقر داره (133).

---

(130) ليسبيس OP . CIT ص 118
(131) دبلفوكس في المجلة الافريقية XVII ص 345 .
(132) لبربروغر :" العصر العسكري للقبائل الكبرى " ص 62 .
(133) بوليفة : " جرجرة عبر التاريخ " ص 126

وهزم الضابط كارا حسن الذي اختاره خير الدين على رأس فرقة من الجيش ملك الكوكو وطرده من جباله ولحقه حتى كولو حيث استولى عليها (134) .

وخلال ذلك تم طرد ابن القاضي الى عنابة ، لكنه لم يعترف بهزيمته ، واستمع الى نصائح واقتراحات ملك تونس الذي كان يرغب دائما في استرجاع الاقليم القديم من الامبراطورية الحفصية فتحالف معه ، ورجع ابن القاضي على رأس جيش يتكون بمعظمه من القوات التونسية الى قلب القبائل الكبرى . وهناك أطلق تصريحا يدعو فيه كل الزواويون لحمل السلاح والالتحاق به لمهاجمة مدينة الجزائر (135) .

وجمع خير الدين قواته دون تردد ودون أي تأخير ووقف أمام العدو الذي قابله في سهل ايسّر حيث التحم الجيشان في معركة حامية الوطيس . وأول من تلقى ضربة الانكشاريين هم التونسيون بحيث تراجعوا الى اليسار على مرتفعات فليسه أم الليل حيث تبعتهم الجيوش التركية الى هناك ، لكن ابن القاضي الذي كان يعرف جيدا طوبوغرافيا بلاده وحماس جنوده ، لم يترك هذه الفرصة تضيع من يده ، وعليه فقد أعطى أوامره وبخطة ماهرة وذكية حاصر الجيوش التركية وهزمها (136).

انها مذبحة حقيقية .. فجيوش خير الدين قد هزمت تماما وهذا الأخير أصبح في خطر كبير وهو يريد أن ينجو بنفسه ويصل الى جيجل حيث التجأ اليها (137). وواصل ابن القاضي سيره الى مدينة الجزائر تغمره النشوة بالنصر وحاصرها واحتلها بدون أي صعوبات .

---

(134) ميرسيي : " تاريخ افريقيا الشمالية " الجزء الثالث ص 26

(135) بوليفة : OP.cit ص 126

(136) نفس المصدر السابق

(137) ميرسيي : " تاريخ افريقيا الشمالية الجزء الثاني ص 27

واتفق معظم المؤلفين في الاعتقاد بأن هذه الأعمال قد تمت سنة 1520 (138) .

وتهتم الغزوات دائما باعطاء دورا جيدا لخير الدين بحيث أنها لم تروي التاريخ بنفس طريقة المؤلفين الآخرين ، ولكن هل هي قابلة للتصديق حيث يقول بأن الجيوش التركية أهملت مدينة الجزائر ... (139) أو أنه بواسطة الدسائس والمؤمرات ، كان ابن القاضي قد حمل على قيادة المدينة (140) .

ان ما نعرفه وما نحن متأكدون منه هو أن خير الدين قد طرد من مدينة الجزائر ، وأن ابن القاضي أقام فيها مدة طويلة ، ويشهد بوليفة على تاريخ بارباروس كله (141) وكان هو المؤلف الوحيد الذي تكلم عن سبع سنوات من الاحتلال من سنة (1520 ـ 1527) ، وتكلم هامار في مؤلفه تاريخ الامبراطورية العثمانية عن 6 سنوات، من الاحتلال(142) أما بيربروغر فقد حدده بثلاث سنوات ، لكن معظم المؤرخين الآخرين أعطوا فترة 5 سنوات (143) وخلال هذه الفترة أقامت جيوش القبائل في مدينة الجزائر ، وبدأوا يرتكبون الأخطاء ويثيرون الفوضى في اغتصاب الغنائم وغيرها (وقد دخل ابن القاضي المدينة بحيث لم يمكث فيها مدة طويلة وأصبح سكان المدينة لا يطيقونه أبدا (144) وبدأ السكان والناس يشعرون بالاسف والحزن على فراق خير الدين.

---

(138) بيربروغر : " العصور العسكرية " ص 74 ، بوليفة cit ص 127.
جوليان : " تاريخ افريقيا الجنوبية ص 257 الجزء الثاني .
غرامونت : " تاريخ الجزائر تحت السيطرة التركية" ص 33

(139) ساندر رانج ودنيس : OP.cit الجزء الاول ص 198 .

(140) نفس المصدر .

(141) بوليفة OP.cit ص 147 .

(142) هامار : " تاريخ الامبراطورية العثمانية" الجزء الخامس ص 240 .

(143) جينيفو في النشرة الفصلية رقم 121 ص 54.بوير في مجلة العالم الاسلامي رقم 8 ـ 1970 . ص 26 .

(144) غرامونت : تاريخ مدينة الجزائر تحت السيطرة التركية ص 33

لقد دهشنا أمام خمول وعدم مبالاة الاسبان لهذا التغيـــر فـــي الحكم (145) هل تلقوا ضمانات التحالف من رئيس القبائـــل ؟ هل كانوا مسرورين لهزيمة القرصان الرهيب، المرعب ؟ ومهما يكـــن من الامر فان شرشال وتنس تحركت في نفس الوقت مع الجزائر لتتخلص من عبودية الاتراك (146) ، انهم لم يقوموا بأي جهد كي يستفيدوا من هذه الحالة وكذلك لم يحاولوا أيضا زيادة امتيازاتهم في هذه المنطقـــة خلال هذه المدة كلها . وما يدهشنا أيضا هو عدم ردة الفعل من قبـــل الامبراطورية العثمانية والذي يدعم نظريتنا ما سبق ذكره بأن مدينـــة الجزائر لم تكن بعد معتبرة بحق ولاية من ولايات استانبول ،و نلاحـظ أيضا أن هابيدو لم يذكر أبدا هذا الفاصل الزمني القبائلي في كتابـه تاريخ ملوك مدينة الجزائـــر .

أما غزوات، الذي قصد بأن باربا روس تنازل بشكل طوعي الـى عـــدو صمم على امتلاك المدينة حيث كان قد قام بعدة محاولات قبـل ذلـك . وهذا مما يعطينا ترجمة من الصعب قبولها .

وخلال 5 سنوات حكم فيها ابن القاضي مدينة الجزائر ، كان خيـــر الدين في نفس الوقت يعيد في بناء قواته من جديد في منطقة نفـوذه القديمة جيجل . وضاعت مملكته لكن البحر بقي له (147) حيث بدأ في عمل القرصنة ثانية من هناك وبدأ يقوم في فتوحات : كانت كولـــو محتلة من قبل كارا حسن في سنة 1520 حيث، جمع فيها مخيمـــــات، القبائل . وهو نفسه الذي استولى على قسنطينة سنة 1521 وعنابـــة سنة 1522 . وبعد ذلك تحالف مع شيخ بني عباس عـدو ابن القاضي .

---

(146) ميرسيي OP.cit الجزء الثالث ص 27 .

(127) نفس المصدر الســـابـــق

(148) بيربروغر : " لاعصور العسكرية للقبائل الكبرى " ص 96

وعاد الى مدينة الجزائر مدعما بقوة حليفة شيخ بني عباس ، وفي سنة 1525 نزل في منطقة دلس ثم صعد الى وادي سيبو (Sebaou) وبوقدورة وهناك التحم مع القبائل في معركة خرج منها منتصرا، وهكذا فان ابن القاضي قد أهين في لقائه هذا ، ومما زاد في كثرة أعدائه أعماله التعسفية وابتزازاته وأخطائه بحيث برز له أعداء في وسط جماعته ، بينما كانت الجيوش مستعدة للالتحام في منطقة بني عيشة (الشنية) حيث تم اغتياله من قبل جماعته وأحضر رأسه الى باربارؤس وانهزمت القبائل الضالة الحائرة ، أما خير الدين فقد رجع الى مدينة الجزائر مكللا بالنصر .

و خلال أكثر من عامين وخير الدين يتابع قتاله ضد الحسين شقيق بن القاضي الذي جاء من بعده وانتهى هذا القتال باعتراف الحسين بالهزيمة واجباره على دفع ضريبة سنوية مقدارها ثلاثين كيس من الفضة ، ووافق خير الدين على أن يرد للحسين موقعه القديم ، ثم عاد خير الدين الى مدينة الجزائر ليأخذ قسطا من الراحة . (148) .

وبين لنا بيربروغر أن هابيدو استند في احدى فقراته الى عملية اعادة السلام هذه (149) وفي سنة 1529 المذكورة كان باربارؤس في مدينة الجزائريبرم معاهدة السلام الذي كان ينشده من زمن طويل مع ملوك الكوكو واللابيس .

وفي نفس الوقت أدرك خير الدين بسياسته الذكية بأنه يجب أن يضمن شر مجموعة الدول اذا أراد أن يحافظ على مدينة الجزائر، فقام باسترجاع تنس وشرشال التي كانت تتحالف مع ابن القاضي و عاقب بكل قسوة الرؤساء الذين تمردوا .

وقد قهر كذلك مستغانم (1526) ـ (150) . وأخيرا استطاع انهاء المشاكل الداخلية التي وجدت في مملكته وبقي عليه أن ينتزع الاشواك

---

(148) بيربروغر : " العصور العسكرية للقبائل الكبرى " ص 96
(149) نفس المصدر السابق
(150) هابيدو : " الاشد " ص 210

والمصاعب المتواجدة في قلب مدينة الجزائر ، لذا فهو سيهاجم قلعة البنيـــــون .

احتـــلال قـلـعـــة البنـــيـون :

منذ 18 سنة والحصن الذي بناه الاسبان فوق جزر ميناء مدينـــة الجزائر يسيطـر على هذه المدينـــة .

وتعاقب على هذا الحصن حاكم ساحة مارتان دوقارغاس في عهـــد نيكولاس الخامس ، حيث كان يتواجد في هذا الحصن قرابة 150 رجلا، وقد دفعهم الفضول الى اضافة 20 امرأة لخدمتهم وعددا من الأطـفـال الى هذا الموقع الصغير جدا (151)، ان ظروف الحياة في هذاالموضع غير ثابتة وذلك منذ أن منع عروج تزويده بالمياه الصالحـة للشـــرب والمؤونة ، لذلك فانه يجب احضار كل شيء ، اما من وهران أو من جـزر البليار الاسبانية، ومع ذلك فان نزول الاسبان الى المدينة لـم يكـــن نادرا بحيث اجتمع خير الدين بحاكم القلعة وطلب منه أن يضبـــط رجاله ضمن حدوده المسموح بها والا فهو يهددهم بالقتل وهذا يعتبـــر دفاعا شرعيا (152) ، بالاضافة الى ذلك وبسبب نفوذالمسيحيين وقوتهم فان بارباروس يجب عليه أن يبقي سفينته الشراعية القديمـة وكذلـك سفن مرافقيه الى حد ما خارج باب الواد فوق الشاطىء في المكان الذي يمر منه مجرى الماء . وبدون شك فان هذه السفن كانت خارج منطقة نفوذ المسيحيين بحيث لا يستطيعون أن يلحقوا أي ضرر بهـذا الشـاطـــيء المحمي . لكن عروج كان متعبا جدا من الواجب الذي ينتظـره عنـــد عودته من كل عملية قرصنة وهو سحب السفن الى اليابسة فوق الشاطىء

---

(150) بلهاميس : " تاريخ مستغانم " ص 69 .

(151) لوبيز دوغومارا ، نقله بيربروغر في " قلعة مدينة الجزائر " ص 93 .

(152) ساندر رانج ودنيس الجزء الاول ص 222 .

ويقوم بهذه العملية الاسرى المسيحيين والذين يكونون منهكين من من جراء عملهم في التجديف وكذلك يقومون بجرها بنفس الطريقة من على الشاطىء الى داخل الماء ، أما فيما يخص التجار المسيحيين والمغاربة الذين يستخدمون البحارة في العمل على الحواف المرتفعة بحيث يجب أن يقوموا بهذا العمل في الخليج الصغير الذي يكونه البحر بعيدا عن باب عزون نحو الوسط وبهذا فالبحارة يكونون دائما معرضين للخطر .(153) .

وفي تلك اللحظات أسرع خير الدين بنصب مدفعية مقابل قلعة البنيون (154) وكان منزعجا لانشغاله بتجديد ذخيرته من البارود والعتاد الحربي الذي تم استهلاكه نظرا لاستغلاله في العمليات العسكرية السابقة (155) وتزود بالقطع المدفعية الكبيرة التي يحتاجها (156) .

وقام باصلاح القطع الفاسدة بتحديدها وتطريقها من جديد مما سيعطيه الفرصة في مهاجمة القلعة في نهاية الأمر .

وفي ماي سنة 1529 تظاهر اثنين من سكان مدينة الجزائر بأنهم دخلوا الدين المسيحي وذهبوا الى القلعة حيث استقبلهم سكان القلعة وأنزلوهم منزلة حسنة وأسكنوهم عندهم ، وفي أحدالأيام بينما كان الجميع يحضرون القداس صعد هذان الجزائريان على أحد الابراج وأرسلوا اشارات من أجل تنبيه المدينة ، الا أنهما فوجئا بخادمة فضحت أمرهما ، فتعلقوا في سرفة مقابلة للمدينة (157)حيث رآهما الناس ، وهذا المشهد جعل خير الدين يسرع في اتخاذ القرار

---

(153) هايبدو : " الأسر " ص 210 .
(154) هايبدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 42 .
(155) ساندر رانج ودنيس OP.cit ص 223 .
(156) هايبدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 42
(157) نفس المصدر السابق .

في الهجوم على القلعة .

وقبل الهجوم أرسل مفاوضا أمره بالذهاب الى القلعة للتفاوض معهم حتى يجنبهم الانتقام والاخذ بالثأر . لكنهم رفضوا التفاوض وأمام هذا الرفض المنتظر من طرف مارتان دو ڤارغاس فتح خيرالدين اطلاق النار في يوم 6 ماي ، ورد المسيحيين على اطلاق النار بعنف حيث رأينا وابلا من الكرات الحديدية (القنابل) والرصاص يسقط على المدينة وقد ركزوا قصف مدافعهم على منارات المساجد ، ونجحوا في تهديم وتدمير جزءا كبيرا منها ومن بينها منارة الجامع الكبير (158).

لكن المدفعية الجزائرية لم تستسلم فبعد خمسة عشر يوما دون توقف ضربت بقوة وأسقطت البرجين الموجودين في القلعة و هدمت السور المقابل السور المقابل للمدينة (169) وقتلت جزءا كبيرا من المدافعين عن القلعة .

ولزيادة سلاح مدفعيته لم يتردد خير الدين في الاستيلاء على أسلحة السفن التي كانت توجد في تلك اللحظات داخل الميناء ومن بينها سفينة فرنسية " الاخوة جون" التي كانت هناك لاصلاحها وترميمها (160) والتي لا علاقة لها بالتأكيد في هذه الحرب كما ذكر هايدو .

وبعد أن تم تدمير ساحة القلعة وجزءا كبيرا من تحصيناتها . أعطى خير الدين أمرا عسكريا لكل السفن والقوارب بالتحرك وأطلق اشاعة بأنها متوجهة للقتال على السواحل الاسبانية ، ولكن في منتصف الليل دخلت المرسى واختبأت في ميناء تامونفوست ، أما المسيحيين

---

(158) ساندر رانج ودنيس OP.cit الجزء الاول ص 223 .
(159) هايدو :" تاريخ ملوك مدينة الجزائر ص 43
(160) لوجيير دو تاسي : " تاريخ الدول البربرية " الجزء الاول ص 62 .

فقد أخذوا قليلا من الراحة بعد يوم كامل من المعارك المضنية . وفي ليلة الخميس 26 الى الجمعة 27 من شهر ماي اقتربت القوارب من الجزيرة بحيث حاصرتها في الصباح وفي المساء، وبعد ذلك قفز الجزائريون الى الارض وانقضوا بكل قوة على من بقي في القلعة بعد المعركة الحامية وحملوهم معهم (161) حيث وقع في أيديهم 90 جنديا من مجموع 150 كانوا يوجدون في الموقع و 25 امرأة وطفل أصبحوا عبيدا لهم (162) .

كما تم أسر حاكم القلعة مارتان دوفارغاس وحكم عليه بالاعدام (وقبل أن ينفذ فيه حكم الاعدام) عيّن مراقبا لعمل الأسرى الآخرين الذين يتوجب عليهم اعادة بناء منارات المساجد .
وبدون انتظار أمر بارباروس بتهديم القلعة .

وتم تهديم قلعة البنيون ولم يبقى منها سوى برجين فقط . ولتفادي أي مغامرة أخرى في المستقبل من على هذه الانقاض والردوم قاموا بطمر القنوات الواصلة بين الجزر وربطوها بالارض (اليابسة)، انه رصيف طويل طوله حوالي 200 متر تقريبا وعرضه 25 متر وارتفاعه 4 أمتار ويربط المدينة بالأساطيل والسفن (163) .

وخلال سنتين عمل أكثر من 2000 من العبيد في هذا المشروع العظيم وأضافوا الى هذه الانقاض والردوم حجارة كبيرة أحضروها من آثار ريسغينيا (Rusguiniae) والتي اقتلعها الجزائريون منذ زمن طويل من المقالع (المحاجر) (164) .

---

(161) رسالة بدرو دو غودوي حاكم وهران ، وجاسوس يهودي من مدينة الجزائر (أرشيف سيمونكاس) في المجلة الافريقية XIX ص 163 و 164 .
(162) تحدث هابيدو عن 53 جندي وثلاث نساء .
(163) ليسبيس OP.cit ص 3
(164) = مدينة الجزائر ص 3

واجتمعت الجزر الاربعة لتشكل أرضا واسعة ممتدة والتي أصبحت تشكل مشروع الميناء الحالي ، ووجدت البواخر أخيرا مخبأ تستطيع الالتجاء اليه في المساء بمساعدة سلسلة كبيرة ممتدة . ومنذ ذلك اليوم وحتى سنة 1830 كانت مدينة الجزائر تثير الرعب والهلع في منطقة البحر الابيض المتوسط ، وهي المكان المفضل الذي كان يلجأ اليه القراصنة البربر ، فالدولة كانت قد شكلت بشكل نهائي (165) .

---

(165) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر" ص 36.

الفصل الثالث

الجزائر سنة 1531

جهّزت الجزائر التي سلمت من الاسبان أخيرا بميناء ، ودرّبت من قبل أحد القراصنة الاسطوريين على مدى العصور والتي تستطيع الاعتزاز مستقبلا بالنجاح الدائم والمتصاعد للقرصنة في البحر .
القرصنة : يقصد بالقرصنة هنا قرصنة البحار .

ان القرصنة " ظاهرة استيطان البحر الابيض المتوسط" (166) قديمة قدم التاريخ وهي تتألف عادة من النشاط الذي يعتمد على المصادفة والتي أتت لتضيف ثروة مكملة لتلك الثروة الموجودة في مجتمع يحيى دائما في حدود امكانياته ، وأحس دائما بشوكة البؤس أو الخوف من المجاعة (167).

ان القرصان يصطاد لنفسه . ويوجد نوع آخر من القرصنة الدنيا (السفلى) تقترب أكثر الى الشقاء منها الى السلب و النهب . انها طبقات متدنية من البشرية ، ذات طموحات ورغبات صغيرة ليس لها قيمة (168) .

القرصنة هي حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفينة حربية، جوازات ، سفر ، لجان وتعليمات169 والقرصنة لها قوانينها وأنظمتها وعاداتها (170) الحية وتقاليدها.

(166) سلفاتور بونو " I قرصان بربري " ص 3
(167) مونلو : " الدول البربرية " ص 21
(168) بروديل : " البحر الابيض المتوسط " الجزء الثاني ص 195
(169) نفس المصدر في 169 الجزء الثاني ص 191 .
(170) سلفوتور بونور عن بروديل OP.cit الجزء الثاني ص 191.

ان بحريات الدولة الرسمية تفتح صفوفها للقراصنة فتارة ينجـــون ، وأخرى لا ينجون (171) . ان القرصنة ليست عملا خاصا بل هي عمـــل الدولة ، القرصنة والنشاط الاقتصادي مترابطان ، فهذا يرتفـع و ذاك يستفيد من الازدهار والتقدم (172) ، لأن القرصنة تقتضـــي حلـقـــة مبادلات .. ومدينة الجزائر لن تكون ميناء كبيرا للقرصنة الا اذا أصبحت مركزا تجاريا نشيطا (173) وكل واحد فيهما يعتمد على الآخر.

اذا ، " بالنسبة للمسلمين فان القرصنة قبل شيء هي شكـل مـن أشكال الجهاد في البحر" (174) ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين (نظام المالت) وتعتبـر خـاصـــة مشروعا يهتم بدخله وعائداته فقـط (175) .

القرصنة الحرفية الاكثر شبها وقربا من القرصنة البحرية التـــي كانت تمارس حتى ذلك الحين . وارتفعت في مدينة الجزائـر الـــى مستوى مؤسسة اجتماعية، محمية ومنظمة بواسطة الحكومة القانونيـــة التي حافظت على وجودها خلال أكثر من ثلاثة قرون التـــي انتهـت بامتصاصها واحتكار ربحها (176). ولأن القرصنة أصبحـــت حرفـــة الدولة لذلك فانها تحتاج الى نظام وقانون دقيق صارم .

النـــظام : هو قبل كل شيء عناية القراصنة بسفنهم لأنـــها هـــي الآلات الحقيقية للعمل ، اذ يقومون بفحصها من حيث النظافة والنظام والترتيب ، وهم الذين لا يفكرون في شيء آخر سواها (177) .

---

(171) بروديل : " البحر المتوسط " الجزء الثاني ص 195 .
(172) نفس المصدر السابق الجزء الثاني ص 206 .
(173) نفس المصدر السابق الجزء الثاني ص 194 .
(174) بلهاميس : " تاريخ البحرية الجزائرية" ص 144
(175) مونلـو : " الدول البربرية " ص 68.
(176) غرامونت :"دراسات جزائرية :القرصنة، العبودية..الخ ص 3 :
(177) هاييدو : في المجلة الافريقية XV ص 47 .

ان أشرعة سفن القراصنة تكون كلها صغيرة السعة وتعتمد على السرعة وضعف تسليحها .

وأنواع السفن في ذلك العصر كانت على الخصوص :

- مركب ذات ثلاث صواري يعرف بالشبك وثلاثون مجدافا وتتسع الى أقل من 200 طن ، محملة بطاقم يتكون من 30 ـ 200 رجل ومجهزة بأربعة الى أربع وعشرين مدفعا .
- السفينة الحربية الصغيرة يوجد فيها من 12 ـ 19 مقعد ومن 20 الى 130 رجل ، ومن 2 ـ 10 مدافع .
- سفينة شراعية بصاريين ، وهي سفينة انتقالية بين السفينة ذات المجاذيف والسفينة الشراعية : صاري واحد فقط ، 16 مجدّف بحيث يوجد رجل واحد على كل مجداف .

ويستعمل القراصنة المجداف عادة أكثر من الشراع .

يمشون دائما بالمجداف ولا يرفعون أشرعة سفنهم أبدا وذلك حتى لا يراهم أحد من بعيد ، وكما يقولون يقطعون الريح في أذرع المسيحيين ويجرون بشكل عادي كما يقتضي فن مهنة القرصنة، ويندفعون بكل قوة سواء كان الريح ساكنا أو عكس خط سيرهم (178) ولا يستخدمون الشراع في طريق عودتهم وأثناء تجوالهم في انتظار فريستهم (179).

ومن هنا تأتي أهمية المجدّفين فهم مدربون ، مطيعون، مقتصدون جدا " الحصة اليومية للواحد من الطعام تتألف من ثلاثة قطع من البسكوت وكمية من الماء مخلوطة بالخل (180) ، وهناك مجدّفون لا مثيل لهم يمتلكون القوة التي يمتلكها رياس مدينة الجزائر (181).

---

(178) هايبدو / من الاسر ص 96

(179) غرامونت : دراسات جزائرية ص 17

(180)

(181)

وكان يسود السفن نظاما حديديا صارما : فالمجدفون كانوا مربوطون الى أماكنهم ولا يتحركون أثناء عملية التجديف (182). ولا يسمح لأحد منهم بالتحرك من مكانه ماعدا ابن الباشا ...(183). هذه الخفة والسرعة في الحركة هي التي ستشكل الثروة من القرصنة الجزائرية ، وروى سيرفونتيس قائلا على لسان أحد بحارة مدينة الجزائر : ونحن كذلك مشينا بخفة فائقة مثل سرعة البرق وعندما هوجمنا كنا نسير باتجاه الريح دون أي عياء أو عرقلة .

ولكن المسيحي بالغ في عظمته بحيث بدا له أنه من غير اللائق به أن يأخذ مجدافا في غمار هذه المجازفة (184) .

والمدافع القليلة التي توجد على ظهر السفينة جعلت السير بطيئا ، وزيادة على ذلك فان المدافع كانت موجودة متراصة الواحد جانب الآخر ، بحيث لا يبقى مكانا كافيا لتحريك هذه المدافع الى الخلف (185) .

ان سفن القراصنة كانت قليلة الفعالية لأنها كانت على العموم أكثر انخفاضا فوق الماء من تلك التي يريدون اقتناصها ، الى درجة أن ظهر السفينة كان دائما مبللا بلجج البحر (186)، ويحدث الهجوم أولا ثم يليه الالتحام بالسلاح الابيض ، وبعد العودة يتم تفحص السفن بعناية فائقة، وشحذ السيوف ثم تشحيمها من جديد (187). ان عملية القرصنة لا تدوم أبدا أكثر من 50 يوما بل نادرا ما تصل

---

(182) غرامونت OP.cit ص 17 .
(183) هاييدو " توبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 47.
(184) سيرفونتيس : " الحياة في مدينة الجزائر " في المجلة الافريقية XXXV ص 127 .
(185) بلهاميسي :" تاريخ البحرية الجزائرية " ص 102.
(186) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 17 .
(187) بلهاميسي OP.cit ص 93

الى هذه المدة (188) ، وزيادة على ذلك فهم لا يخرجون في فصل الشتاء لأنه هو الوقت الذي يبدأون فيه باصلاح سفنهم وتفقدها (189) .

والنظام الذي يسود ظهر السفن يكون صارما خاصة عندما تحضر الفرائس ويتعلق الامر بتوزيع الغنائم .

ان عملية توزيع الغنائم لا تتم هكذا بالصدفة ، فكما قلنا : أن الدولة تعيش من القرصنة ولا تقبل أن تكون مظلومة ، فالحصص منظمة بشكل جيد . طاقم السفينة كله لا يتقاضى أي راتب ، لكنهم يكافئون على الغنائم لانهم لو كانوا يتقاضون مرتباتهم فان ذلك لا يشجعهم على القتال من طوع أنفسهم (190) . ان كاتب السفينة مع الرايس والموظفين الاساسيين يقومون بجرد البضاعة والأشياء الاخرى التي توجد في السفينة وتباع كلها بأثمان جيدة ، ثم تتم عملية التوزيع حسب حالة كل واحد ومرتبته (191) .

تحتفظ الدولة بالقبطان ، القائد ، الكاتب والبحار وكذلك بهيكل السفينة ، وعتاد السفينة مثل المدافع ، الذخيرة ، أو العتاد الحربي للسفن التي تم القاء القبض عليها .

حيث يحتفظ الباشا بـ 12٪ من البضائع والعبيد ، 1٪ تخصص لصيانة الرصيف والميناء . 1٪ تحفظ لصيانة المساجد .
بقية الغنائم تقسم الى قسمين :

نصفها يعود الى مجهز السفينة (صاحبها) ، والى كل من ساهموا في تجهيز نفقات العملية . لأن حملة كهذه كانت عملا هاما جدا وكل

---

(188) غرامونت : OP.cit ص 63.
(189) بلهاميسي OP.cit ص 93 .
(190) دان : " تاريخ البربر والقراصنة " ص 305.
(191) نفس المصدر السابق ص 303 .

الناس في مدينة الجزائر انتفعوا منها ، كما أن هناك عدد كبير من السكان المدنيين ساهموا بأموالهم في هذه العملية آملين في استرداد هذه الأموال مع الفائدة أو الربح (192) .حتى أن النساء ذهبن الى حد المشاركة بحليهن وكل المساهمين يحصلون على أرباحهم من الغنائم . وخصّص النصف الآخر لطاقم السفينة والجنود .

وفي هذا التقسيم الأخير يحصل الرايس (قائد السفينة) على 40 حصة . ويحصل البحارة والملاحون على ثلاثة حصص والجنود على نصف حصة .ولا يدخل في هذه الحصص المبالغ التي وجدت في السفينة وكذلك الأموال التي نتجت عن عملية بيع البضائع .

وكان دائما السارقون والمسروقون فى عملية القرصنة جاهزين للنقاش والتفاهم ، ومن هنا نشأت شبكة واسعة للتواطؤ والتستر على اختفاء البضائع المسروقة (193) . ويأتي كثير من التجار الأوروبيين الى الجزائر للتزود بهذه البضاعة التي جلبها القراصنة رغم المنع المتكرر لهم من قبل حكوماتهم .

كما يجب التذكير أنه يمنع في اسبانيا شراء البضائع المنهوبة والمسروقة وأنه لا يسمح بشراء بضائع القراصنة ، ولكن هذه البضاعة وجدت من يأخذها بسهولة باتجاه ايطاليا وميناء ليفورن (194) . وللتغلب على عملية منع شراء هذه البضاعة من القراصنة فان اليهود لعبوا دور الوسيط بين التجار المسيحيين ، حيث أصبح ميناء ليفورن الايطالي هو المكان الحقيقي الذي تدور فيه هذه التجار الغير مشروعة .

---

(192) ماسيرز : " أرض وشعب الجزائر " مرسيل عرموش :1956 ص 266.
(193) بروديل : " البحر المتوسط " الجزء الثاني ص 191 .
(194) نفس المصدر ص 212

فالقرصنة اذا شجعت التجار بدل أن يفروا ويهربوا ، الاقطاعيون شيعوا من الفوائد والارباح واستخدموها وقاموا بأعمال البناء، بحيث صار مجموع السكان أغنياء من تجارة البضائع المسروقة (195) .

وكما ذكر هاييدو " عندما يعود القراصنة تكون مدينة الجزائر كلها فرحة ومسرورة لأن التجار يشترون العبيد والبضائع التي حملها القراصنة اليهم ولأن تجار المدينة باعوا كل ما عندهم في محلاتهم من لباس ومؤونة لهؤلاء القادمين من البحر : ولاهمّ لهم سوى الأكل والشرب واللهو (196) .

الأسرى :

والبضاعة البشرية ؟

فالرجال ، كانوا البضاعة الرائجة الاكثر قيمة وهي التي تكررت كثيرا في غنائم القراصنة (197) . ففي سنة 1533 كان يوجد في مدينة الجزائر 7000 من العبيد (198) حيث شكلت عملية أسرهم ومعاملتهم وبيعهم وشراءهم ثانية قطاعا قويا هاما في النشاط التجاري (199) .

وعملية استرجاع الاسرى لاسيما العبيد المسيحيين الذينْ هم من الرهبان أو مهربين أوروبيين أو يهود دائما ثابتة مقابل مبالغ باهظة جدا والتي تشكل مدخولا نقديا ذا أهمية كبيرة للدولة (200). وتدخل نوعية الاسير الذاتية في الحساب ، فالاسرى الذين يتمتعون بكفاءات يحظون بعمل في حياتهم عندما ترسو بهم السفينة فالتجارين والمكلفين بالمدافع ، ومديروا دفّة السفينة و السباكون

(195) مونلو : " الدولة البربرية " ص 90 ـ 91 .
(196) هاييدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 49
(197) بونو : " قرصان بربري " ص 9.
(198) المجلة التاريخية للجيش 1953 ص 25.
(199) عطاالله دهينة "دول الغرب المسلمة" ص 397 .
(200) نفس المصدر السابق ص 399 .

كل هولاء على العموم تأخذهم الدولة . وكان الآخرون يباعون في المزاد العلني بعدما يكون الباشا قد أخذ واحدا من كل ثمانية منهم لاستعماله الشخصي .

وسوف يبنى بالقرب من الجنينة سوقا حقيقيا لبيع وشراء العبيد ، وهذا السوق أطلق عليه اسم الباتستان أو (البازستان).

وحتى سنة 1579 (العصر الذي كان فيه الباشا مازال موجودا) فان عمل الذي يرأس عملية البيع بالمزاد كان مرغوبا جدا: فهو يتقاضى عن كل عبد يبيعه رسوما معتبرة ويكون العرض كمايلي : في الصباح تخضع (العبيد) للامتحان والتفقد . وتفحص أسنانهم كالحيوانات لمعرفة ما اذا كانوا قادرين على قضم البسكويت وهم على ظهر السفن الحربية ...(201) ثم تفحص أيديهم لمعرفة ما اذا كانت قوية وخشنة أو اذا كانت بيضاء ونظيفة ، وهذا يوحي بأنه رجل ذو منزلة رفيعة فيعتبر اذا غنيا . كما ينظر الى خط حياتهم لمعرفة ما اذا يمكنهم البقاء وقتا طويلا (202) . كما يجعلونهم يمشون ويقفزون ، ثم تجس وتفحص عضلاتهم ...ويطرح عليهم أسئلة تتعلق بأسمائهم وصفاتهم فيجيبون بأجوبة كاذبة مدروسة ، مقللين من أهميتهم الاجتماعية حتى لا ترتفع أسعار فديتهم كثيرا (203) وتكون عملية البيع بحصر المعنى بعد صلاة الظهر .

ورغم كل الأعمال التي قام بها عددا كبيرا من الباحثين ، فلا يوجد لدينا معلومات دقيقة عن ثمن بيع العبيد في سوق المدينة(204) فعادة ما يكون الثمن حسب العرض والطلب وحسب عدد الأسرى في

---

(201) أرانـدا : " العلاقة بين الاسر والحرية" لسيورأرندا. ص 13.
(202) بونـو : " I قرصان بربري " ص 222 .
(203) سيرفونتيس دارانـدا : قلعة الاولاد ، المرتدين ...الخ .
(204) بونـو OP.cit ص 223.

السوق . وهناك قول مأثور ومؤكد وهو أنه بعد هزيمة شارل الخامس في سنة 1541 كان يتم مبادلة مسيحي مقابل بصلة ....

وعلى العموم فاننا نعتقد بأن ثمن الرجل لم يكن مرتفعا جدا، ولا يكلف غاليا . وكل الناس يمكنهم دفع هذا الثمن ، ولم يكن في مدينة الجزائر خدم أحرار ، فمن بيت الملك الى بيت أفقر السكان يوجد فيها عبد مسيحيين للقيام على خدمتها (205) .

وفوق هذه المزرعة البشرية فان جزءا منهم يعادون أوتوماتيكيا الى السفن الحربية : انهم رجال البحر الذين كانوا أنصاف عبيد عند أهلهم وأقاربهم والذين لا يعقل أن ننتظر مقابلهم أدنى فدية ، انهم يستعيدون شرفهم بأنفسهم اذا ما جعلتهم الصدفة يوما ما أغنياء، الا اذا أخذ منقذوهم على عاتقهم دفع مبلغ حرية هؤلاء العبيد ، ومهما تكن نوعياتهم فانها لن تختلف كثيرا عن نوعية هؤلاء الذين كانوا معهم على ظهر سفينتهم الاصلية، حيث هم من طبقة اللصوص الاشقياء والبوؤساء في البحر المتوسط ، وكلهم يجدفون على السواء من أجل هذا أو ذاك ، دون أن يكون عندهم أمل في حياة أفضل .

وهناك قسم آخر أقل قيمة وهم العجزة من ذوي العاهات والشيوخ المسنون الذين اشتراهم الفلاحين ، واستخدموهم لجر المحراث أو تراهم منحنين تحت حجر الرحي ، وهم محرومين من كل أمل في أن يكونوا أحرارا (206) .

وقسم آخر اشترته البلدية كي يستخدمونهم في الأشغال العامة . لكن هؤلاء من الصعب جدا رد حريتهم لهم وذلك لأنهم كانوا يعملون عند كل الناس ولا يوجد لهم أسياد معينين ، وهم لا يعرفون مع من يتعاملون لفديتهم حتى ولو كانوا يملكون هذه الفدية ...(207).

(205) لوجيير دو تاسي عن تيلار" الجزائر في الادب " ص 26 .
(206) غرامونت :"دراسات جزائرية" ص 56 .
(207) سيرفونتيس :" الاسرى في دون كيشوت " الجزءالاول. ص 371.
(108) غرامونت OP.cit ص 53.

وآخرين حيث كانت قيمة الفدية محددة بمبلغ عادل ، اقتناهم الخواص حيث يقومون بخدمة بيوتهم فيقومون بأعمال الصيانة والتنظيف، كما يسخرون لجلب المياه ، يحرسون الاطفال ، يبيضون البيوت (يدهنونها) وهم مستخدمون في البيوت الريفية ، حيث بامكانهم أن يصبحوا مديرون حقيقيون .

أما كيفية حياتهم فهذا يرجع الى أمزجة وطباع أسيادهم، فلايوجد في مدينة الجزائر أي قانون أو تنظيم للعبودية : فحالة العبد تعتمد فقط على سيده (208). وحسب كل التقارير المنزلية فانه ربما يقع أحدهم مع رجل طيب والآخر مع رجل قاس غليظ الطباع، دون أن يكون هذا العبد مكرها على ذلك ، فعرف اللاجئون الاندلسيون بحقدهم وعداوتهم ضد المسيحيين الذين يحافظون على سمعة و شهرة سادتهم القساة . ولكن هذه ليست عامة .

فهناك سادة يوصفون بانسانيتهم ، حيث روى لنا أرندا في القرن اللاحق مطولا عن محادثاته الاخوية ووجبات الطعام التي تناولها مع سيده وهو يقول : " أكلت مع سيدي في نفس الطبق الذي يأكل فيه وكنت جالسا الى جانبه والارجل متشابكة على الطريقة التركية ..(209).

وبشكل عام فانهم يعيشون جيدا فكل اهتمام البرابرة هو حتى لا تتضرر أملاكهم ولا تتعرض للتلف والهلاك (210) .

وفيمايخص الاسرى الذين يمكن مبادلتهم بفدية كبيرة منحوا الاستراحة والامن حتى حان وقت شرائهم ثانية (211) .

في هذه الحالة عندما يتفق السيد والعبد على ثمن الفدية يمكن العبد الذهاب والرجوع كما يحلو له في ظروف سهلة للرجوع

---

(209) بونو : " I قرصان بربري " ص 53
(210) سيرفونتيس : " الاسرى " في دون كيشوت. الجزءالاول. ص 371.
(211) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 57 .

الى المدينة قبل اغلاق الابواب ، حيث ينام في المكان المخصص له (212) ، وهناك يتم ربطهم بسلسلة من الحديد ويدل هذا بالاحرى على استراجاعهم وبقائهم في ظل العبودية (213). أما العبيد المحليين فلا يربطون بهذه السلاسل ، وعادة ما تخفف الى حلقات من الحديد مختومة بالشمع الأحمر ، ثم يربطون الى وتد ، وأن ربطهم بسلاسل الحديد كان وضعا استثنائيا .

.فاما ان يكون رب العمل قد أراد من ذلك بأن يبيع عبده بسرعة وبثمن أغلى ، واما أن يكون ذلك عقابا للعبد بسبب تمرده وعصيانه ، أو ربما يكون قد ثبت عداء العبد للاسلام ، وهكذا في النهاية اما أن يكون هناك أسطولا أو حامية مسيحية على مسافة قريبة جعلته يخشى على العبيد من عمليات الفرار (214).

وقد تم اعفاء العبيد الأغنياء من السجن المؤبد ، حيث خضعوا للسجن مرة أو مرتين في السنة ، وكل الاسرى الآخرين الا اذا تأخر وصول الفدية ، كما يريدون هكذا اجبارهم على الكتابة بطريقة تستوجب التعجيل (215) والضغط على عائلاتهم من أجل دفع الفدية في أقرب وقت .

ان الضرر الكبير الذي ينجم عن اعطاء العبيد نصف الحرية ، هو أنهم لا يحصلون على الغذاء ، لذا يتوجب عليهم اظهار مهارتهم المخبأة ، فيضطرون في بعض الأحيان الى السرقة لتوفير قوتهم ومؤنتهم (216) .

---

(212) سيرفونتيس :" OP.cit " ص 371 .
(213) تيوربي ديلوف :" افريقيا البربرية" ص 114 .
(214) سيرفونتيس : " الاسرى " في دون كيشوت: الجزء الاول. ص 371.
(215) علاقات أراندا ص 229
(216)

لقد صرنا بعيدين عن روايات الآباء المنقذين وعن كتابات ذلك العصر التي ترينا هؤلاء الاشقياء ، أصحاب الخط السيىء ، وهم مقيدون بالسلاسل الحديدية بحيث لا يستطيعون التحرك من ثقلها (217). وبعيدين أيضا عن أوصاف التعذيب الفظيع الذي ظهر بجلاء وأثار شفقة النفوس الخيرة والمحبة لبلادها فبدأوا يحثون الناس على المساهمة بسخاء وكرم في جمع الاموال ليفتدوا بها الاسرى. ودائما فان أعمال العنف لها على حد تعبيرهم مبرراتها عند أسيادهم ،فأعمال التعذيب والتنكيل والقسوة عادة ما يكون لها علاقة بمحاولات الهرب وأعمال العنف التي يقوم بها العبيد ضد معلميهم وسادتهم ، أو قتل وتعذيب المسلمين انتقاما منهم (218) في بعض الاحيان حيث تعتبر هذه الأعمال وسيلة فعالة لدفعهم بحماس من أجل الحصول على حريتهم (219) .

ولكن على العموم فان مصيرهم هذا لا يحسدون عليه ، الا أنه أقل مصيبة من الصورة التي أعطيت لنا عنهم . ويروي لنا فوجير دوتاسي مستهزءا عن الموكب الاحتفالي الذي نظمه رجال الدين والرهبان عند وصولهم الى اسبانيا وهم يُعرضون الاسرى المحررين الذين استردوهم بعد دفع الفدية حيث كانوا يرتدون برانيسهم ولحاهم طويلة وفي أجسادهم السلاسل الحديدية التي لم يحملوها في حياتهم من قبل (220) .

ألم تكن هذه السلاسل خلال فترة العبودية بالنسبة لهم أسوأ من العنف والقهر ؟ (221) .

---

(217) هاييدو : " في الاسرى " ص 107

(218) بونو : " قرصان بربري " ص 218

(219) نفس المصدر السابق ص 220

(220) لوجير دوتاسي .

(221) تيوبير ديلوف : " افريقيا البربرية " ص 149 .

الحمامات : LES BAGNES

ان كلمة سجن جاءت من الكلمة الاسبانية بانو وتعني الحمّام : في البداية كان العبيد يسجنون في الحمامات خلال فترة الليل . وفيمابعد تزايد عددهم وبنيت لهم عمارات خاصة عرفت باسم السجن.

ان داخل السجن شبيه بكل المنازل في مدينة الجزائر، حيث يتكون من ساحة داخلية محاطة برواق مرتفع وقد هيّأت العمارات . بحيث قسمت الى غرف تتسع الواحدة منها الى 15 ـ 20 شخصا ، ولا يوجد أي قطعة أثاث داخلها حيث ينام الأسرى فوق حصائر منسوجة من القصب أو من الحلفاء ، وفي بعض الأحيان ينامون فوق نوع من الأسرّة العالية التي تشبه الى حدما أسرّة التخييم والتي يقومون بصناعتها بأنفسهم ... أما الحارس فعادة ما يكون من المرتدين الجاحدين. وعمل الحراسة مرغوب فيه لأن صاحبه يقوم بسرقة العديد من الهدايا المروسية .

ويقتصر دور الحارس على حفظ بعض الأنظمة داخل السجن ويراقب توزيع القوت والمؤن وكذلك خروج العبيد المخصصين للعمل ويقتضي أيضا أن تكون الممرات والغرف، مبيضة بالجير (الكلس) مرة في الاسبوع ، كما يتأكد من أن كل الاسرى قد عادوا قبل الوقت الذي يمنع فيه التجول وتطفأ الانوار (223) .

وفي نهاية القرن فان الرياس الرئيسيون والملاك الكبار للعبيد كانت لهم سجونهم الخاصة، لكن في سنة 1531 لم يكن سوى سجن واحد فقط في مدينة الجزائر والذي يسمى بسجن باباروس(224) .

---

(122) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 63 .
(123) نفس المصدر السابق
(124) هابيدو : " من الاسر " ص 215 .

حيث يستطيع أن يأتي اليه عبيد المخزن لينامو فيه وكذلك العبيد الذين يمتلكهم الخواص ، يمكنهم أن يأتوا للنوم في هذا لاسجن ، لأنه لا يوجد أماكن عند الخواص كي يسكن فيها هؤلاء العبيد. ويسوق كثير من الخواص أسراهم الى هذه السجون لأنهم سيتم تحريرهم ولأن هذه السجون يمكنها أن تستوعبهم وتوفر لهم أسباب الرّاحة والأمن حتى يأتي موعد تحريرهم (225) .

وهناك ، أثناء الليل حيث تكون الابواب مغلقة ، تتم عملية شراء ومقايضة الأشياء المسروقة في ذلك اليوم بين العبيد . ويعيش القسم الأكبر من العبيد على ما يسرقونه من أشياء ، حيث يقومون ببيع ما سرقوه في ذلك اليوم (226) .وفي داخل تلك السجون يتم طبخ الدجاج والأرانب المسروقة على نار خفيفة لأن الأسياد لا يهتمون كثيرا بتغذية عبيدهم الذين بدورهم لا يتلقون وجبة منظمة الا عندما يحكم عليهم بالاشغال الشاقة للعمل في الطرقات والحقول ، وبهذه المناسبات يوزع عليهم قطعتين من البسكويت في اليوم وكمية قليلة من دقيق الشعير مخصصة لصنع العصيدة (227) ، أما بالنسبة للباسهم فانهم يتلقون خمسة أذرع من نسيج الكتان (228) مرة واحدة كل سنة ، ويصنعون هنها بأنفسهم قميصا وسروالا صغيرا (229) .

وبانتظار عملية اطلاق سراحهم المفترضة ، وبفضل الحرية النسبية التي تسمح لهم بالذهاب والعودة مرورا بالمدينة ، فان الأسرى يبحثون عن كل الوسائل والطرق للهرب .

---

(225) سيرفونتيس : " الاسرى " في دون كيشوت الجزءالاول. ص 371

(226) أراندا " العلاقات ..." ص 20

(227) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 63

(228) واحدة بواحدة

(229) أراندا : " العلاقات .. " ص 15

وربما يكون هذا بالصعود سرا على ظهر سفينة تجارية، وتعرضهم هذه الطريقة الى أخطار كبيرة لأن السفن يتم تفتيشها قبل سفرها. وزيادة على ذلك فان أسيادهم ومالكيهم يقومون بتقييدهم بالسلاسل عندما ترسو أي سفينة من بلادهم في الميناء وذلك اجتنابا لكل محاولات الفرار.

- وربما أيضا يتسللون أثناء حدوث قتال حيث يعملون كمجدفين على ظهر السفن الحربية (ولكنهم بشكل عام كانوا مقيدين بالسلاسل على ظهور هذه السفن) . أو ربما تتم عملية الفرار عندما تتوقف السفن في ميناء مسيحي للتزود بالماء.

- وفي بعض الأحيان يحاولون الالتحاق بوهران بدون مرشد وذلك بالمشي ليلا : حيث يحملون معهم خرج يحتوي على عشرة ليبرات من البسكويت (الليبرة = 500 غرام) ، والحلوى التي كانوايأكلونها مع الأعشاب والحشائش الموجودة في الحقول ، وثلاثة أزواج من الاحذية . وكانوا يتبعون طريق الساحل لأنهم يجهلون طبوغرافيا وخريطة هذه البلاد.

ولكن خلال بعض الاوقات كانوا يتعبون من المشي فوق السياجات اليابسة والمرتفعات حيث كانوا يشعرون بالألم الشديد من كثرة التعب .ويقول لوجير دوتاسي ايرونيز " أن غذائي قد تبلل ، وملابسي تمزقت من الاشواك ، وفسدت أحذيتي ، وخارت قواي، وكان من المستحيل أن أخطو خطوة واحدة ، وهاجمني الجوع وآلمني العطش . ولم أستطع الخروج من هذا الطريق الذي قادني مرة أخرى الى سيّدي لأنني لم أكن أعرف الطريق الذي يوصل الى وهران (230) .

---

(230) سيرفونتيس : " الحياة في مدينة الجزائر " عن كازيناف ، نشرة الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر . 1924 ص 112 .

- ويمكنهم أيضا محاولة سرقة أو شراء زورق للالتحاق بمدينة صديقة مثل وهران أو بجاية .

- كذلك يمكنهم توكيل أمرهم الى أحد المرتدين الجاحدين حيث ينتهز هذا الاخير الفرصة للرجوع الى بلده . ولكن أكبر مشكلة كانوا يعانون منها هي أن المغاربة العرب لا يسمحون لأي مرتد شراء أومتلاك قارب بل يسمح لهم فقط بشراء أو امتلاك سفن كبيرة لاستعمالها في أغراض القرصنة لأنهم يخشون من أن الذي يشتري زورقا ، وخاصة اذا كان اسبانيا فانهم لا يستعملونه الا للهرب به الى بلد مسيحي (231) .

- وأخيرا يوجد مهربين قادمون من اسبانيا والذين يخاطرون بأنفسهم للوصول الى الساحل كي يحملوا معهم من يستطيعون تهريبه .ويكفي لهذه العملية أن يتفق هؤلاء المهربين مع زبائنهم بالتواجد في مكان معين وفي وقت محدد ، لأن الحملات على شواطىء الاعداء لم تكن مقتصرة على الجزائريين فقط . فالقرصنة المسيحية في البحر الابيض المتوسط لم تتوقف أبدا ، ومازالت مستمرة حتى في الساعات الحالكة الظلام (232) .

وهكذا فان القراصنة الجنويين والفلنسيين وصلوا في الليل على أبواب مدينة الجزائر وأسروا كثيرا من المغاربة الذين كان من عاداتهم التجمع لقضاء الليل في المخبأ (الملجأ) (233) وروي الاب غاسير فيمابعد عن مغامرات كثير من الاطفال والشباب الذين تم اختطافهم من قبل قرصان جنوي ، حيث كان هؤلاء الشباب الجزائريين

---

(231) سيرفونتيس :" الاسر " في دون كيشوت. الجزءالاول.ص 379.
(232) بروديل : " البحر الابيض المتوسط " الجزء الثاني ص
(233) هاييدو : " من الاسر " ص 232 .

يلهون ويلعبون بحذر على شاطىء البحر في يوم من أيام الربيع (234).

ان امكانيات الفرار كبيرة والمحاولات كثيرة أيضا ، لكن نجاحها يبقى صعبا جدا مثلما برهن على ذلك المحاولات العديدة التي قام بها سيرفونتيس قبل أن يتم تحريره سنة 1580 .

هذا التجمع السكاني الهامشي قد شغل بال الحكومات ، فهذا خير الدين منشغلا بالتحضيرات لسفره الى استانبول كان قلقا جدا نظرا لعدد العبيد الخونة الذين كانوا يوجدون في مدينة الجزائر ، حيث يزيد عددهم على 7000 وتساءل مع نفسه قائلا " اذا سافرت وتركت كل هؤلاء المسيحيين في المدينة يمكنهم أن يجتمعوا مع بعضهم ويسببوا الفوضى (235) " وفي الواقع فقد تحدثوا عن محاولة عصيان وتمرد هامة جدا قام بها هؤلاء العبيد لكي يجلبوا انتباه مدوني الاخبار التاريخية (كتبة التاريخ) .

ان ابن قائد السفن الحربية الاسبانية (الذي قال عنه غزوات خير الدين خطأ بأنه ابن أحد قضاة جزيرة رودس) وهو دون جون دوبورتونتو الذي كان قد أسره خير الدين سنة 1529 أثناء معركة حيث أسر معه في نفس الوقت أربعة سفن حربية (236). قد نظم مؤامرة هوومرافقيه في النكبة هدفها استعادة سيادة المدينة أو انقاذ أنفسهم بالسلاح (237) ، واكتشف خير الدين خططهم بواسطة انذار أو وشاية رآها في حلم وهو نائم . وقد حصل على أدلة عن هذه المؤامرة بواسطة اللجوء الى الحيلة والمخادعة ، وفي ديسمبر سنة

---

(234) غاسبارد : " بواسطة تيوبير ديلون في الفهرسة لانقدية ... ص 78.

(235) ساندر رانج ودنيس" تاسيس حكومة الوصاية لمدينة الجزائر" الجزء الاول ص 291 .

(236) هاييدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 40و " من الاسر" ص 215 .

(237) ساندر رانج ودنيس : " OP.cit " ص 292 .

1531 أذهل الجناة المذنبين وقطع رؤوس عشرين من بين هؤلاء المسيحيين الذين ظهروا له بأنهم الأكثر ذنبا ، وأرسل الآخرين الى السجن المخصص للاسرى (238) .

ورغم ذلك كله يبقى هذا الوضع استثنائيا .

كما أننا استطعنا أن نرى ظروف حياة العبيد التي سمحت بصعوبة لعمليات ربط الشراع بالصاري .

المرتدين :

مع أن الارتداد عن الدين لا يعطي الحق في الحرية للأسير ، الا أنه على الاقل يجعله متساو مع سيده بقدر ما هو مؤمن ، وترتفع قيمته كعبد بواسطة هذا الايمان ويصبح من الصعب جدا بل من المستحيل بيعه ثانية (239) .

كما أن أحسن طريقة للتخلص من العبودية هو أن يصبح العبد تركيا (240) ، وشاهدنا على مدى القرون ازدهارا حقيقيا في عملية التحول والارتداد والذي يمكن القول عنه على الاقل بأنه لم يكن كله نزيها .

- بالنسبة الى العبيد الفقراء الذين ليس لديهم أي حظ لدفع قيمة فديتهم في يوم ما . وهذه طريقة لادارة الظهر الى العيش بدون أمل في الحصول على حظ يقدم لهم في مجتمع جديد وبدون تعصب ، فالذي يحرس قطعان الماشية يمكن أن يصير ملكا لمدينة الجزائر (241) . انهم يرتدون ويجحدون متى شاؤوا فهم أقلية تتقدم نحو

---

(238) نفس المصدر السابق : ص 301 .

(239) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 76

(240) تيوبير ديلوف : " افريقيا البربرية ... ص 143

(241) بروديل : " البحر الابيض المتوسط " الجزءالثاني .ص 195

الرفعة والسمو والكبر (242) .

- أما بالنسبة لمن نسميهم المنقذون فأمامهم أحد أمرين : أما دفع الفدية أو لبس العمامة (أي الدخول في الاسلام) (243).

- وهي أيضا وسيلة ابتزاز للسيد (مالك العبد) الذي يخسر القيمة التجارية للعبد في حالة ارتداده عن دينه ودخول الاسلام ويجد السيد نفسه مجبرا على تخفيض قيمة الفدية بحيث تكون عادلة .

- بالنسبة الى البعض فهي طريقة للتملص من العمل في الأعمال الشاقة : فكثيرون هم الذين يضايقون أسيادهم بعملهم هذا ، ورغم ذلك فان هؤلاء الاسياد يعتمدون عليهم حتى لا يرفضوا العمل معهم في التجديف (244) .

- أما بالنسبة للذين ظلوا في بلادهم الاصلية فانهم يعانون من مشاكل عديدة معقدة مثل : ظروف الناس العاطفيين ، ظروف التزاوج والظروف القضائية ، انها الفرصة للبدء في سفر جديد الى مدينة في أوج تقدمها وازدهارها .

- لكن الاوضاع والحالات الاكثر تكرارا هي جريمة الزنا الفظيعة : فكل مسيحي ارتكب جريمة الزنا مع مسلمة استحق الموت الا اذا تخلى عن الصليب (المسيحية) .. (245) . ومعظمهم أو كلهم لا يختارون الموت فيرتدون عن دينهم ..وباختصار فانهم يدخلون الاسلام لأسباب سياسية أو خاصة وليس لأسباب دينية (246). ولهذا السبب كان العبيد يتدافعون بسرعة كي يصيروا أتراكا ، انه اذا الطموح أو الالحاد والزندقة (247) .

---

(242) تيوبير ديلوف : OP.cit ص 136 .
(243) نفس المصدر السابق ص 143 .
(244) هاييدو : " من كتاب الاسر " ص 187
(245) تيوبير ديلوف : OP.cit ص 145.
(146) ناسج الحرير والصوف بواسطة "بلهاميس في تاريخ البحرية" ص 71
(247) تيوبير ديلوف : " افريقيا البربرية " ص 143

ان هؤلاء المرتدين الذين صاروا مسلمين بالمناسبة يعيشون بلادين (248) . ونعلم أن السادة لا يشجعون عبيدهم على هذه التحولات عن غير قناعة والتي تحرمهم من قوائد ذات قيمة معتبرة ، وهناك الكثير من الناس يعتقدون بأن العبيد المسيحيين يجبرون على الدخل في الاسلام وترك دينهم ، أو على الاقل يتم طلب ذلك منهم بالحاح عن طريق التحبب والمداعبة ، أو بالتهديد أو بالمعاملات السيئة .

ويقع على عاتق الرهبان تخليص هؤلاء العبيد ولكن الخطأ الذي ارتكبوه كان كبيرا جدا (249) .

فالاسرى الوحيدون الذين تم اغراؤهم حقا هم أولئك الذين لديهم معارف خاصة، بامكانهم تقديم خدمات نادرة مثل : بناة السفن البحرية ، معلمين نجارة ، سباكين ، قادة السفن ، هؤلاء كلهم تحتاج اليهم البحرية ، كذلك المهندسون والمهندسون المعماريون ، وبشكل عام كل من يمكنه تقديم النفع والعون والفائدة في صيانة التحصينات والاسوار (250) .

هذه الحالات توضع جانبا ولا يتم تشجيعها على الارتداد، وكثيرا ما يعارض الاسياد هذا التحول والارتداد بشكل قاطع وبكل صرامة .

ان ظروف العبد المرتد عن دينه تتغير من الأسوأ الى الأحسن فاذا لم يكن متحررا فانه يكون على الاقل معفى نهائيا من الأعمال المرهقة الشاقة كونه صار مسلما ، ولا يمكن بيعه ثانية ، ويبقى العبد ينتمي الى سيده لأن التحول عن دينه لا يؤدي الى التخلص والانعتاق، لكن من الضروري أن يكون العبد محررا ، وهذا التحرر لا يعطي الحق

---

(248) كارتيير بواسطة تيوبير ديلوف OP.cit ص 139 .
(249) بوجير دوتاسي : بواسطة تيوبير ديلوف OP.cit ص 148.
(250) غرامونت : " دراسات جزائرية " . ص 76

للعبد في الانفصال عن سيده الذي كان يعمل لفائدته والذي جعله حرا فالعبد القديم يصير مولى لسيده وعلاقة المولى بسيده تعادل تقريبا الرابطة الاسرية : فيرث السيد مولاه الذي يموت دون أن يكون له عائلة (251) .

وكما رأينا فيماسبق بأن الذي يدخل الاسلام ليس له الحق في امتلاك زورق ولكنه يمكن أن يقود سفينة قرصنة .وأن أكبر الرياس في مدينة الجزائر هم من الجنود المرتدين عن دينهم لأنهم عادة مايكون عندهم خبرة في أشياء البحر : لينتقموا من البلدان التي لم تعطهم حقوقهم ، لذا فقد وضع المرتدون أنفسهم تحت تصرف البرابرة وفي خدمتهم نظرا لمعرفتهم الجيدة في السواحل الأوروبية وعلى الاخص المرافىء والمنارات ، كما أصبح النورمانديين والبروفنسيين يشكلون آفات سيئة ، وأصبحوا الاعداء اللدودين للمسيحيين (252) .

وبما أنهم كانوا رياسا فانهم يمتلكون ثروات هائلة وموقعهم الاجتماعي في المدينة أصبح معتبرا . وفي الغالب كانوا يلعبون دور الوسيط في عمليات تحرير العبيد وفي المحادثات والمباحثات مع البلدان المسيحية .كما يعهد اليهم حراسة العبيد ، حيث يوجد لديهم الكثير منهم .

وبسبب هذه المميزات فان الطبقة الشعبية الجديدة من الاتراك أصحاب المهنة (253) بدأت تتطور حتى أصبحت قوة مزاحمة ومنافسة لقوة الجيش الانكشاري من ذوي الأصول التركية . ان طائفة الرايس المشهورة تتكون كلها تقريبا من المرتدين الذين عارضوا بشدة ووقفوا في وجه جنود استانبول على امتداد القرن السادس عشر ، ثم بدأ دورهم يتلاشى شيئا فشيئا وبدأ الشك يدور حولهم الى درجة أنه لم

---

(251) مارسيز .

(252) تيوبير ديلوف : " افريقيا البربرية " ص 143

(253) هاييدو : " الطبوغرافيا " في المجلة الافريقية XIV ص 496

يبقى منهم سوى بعض العناصر فقط (254) .

الانكشاريون :

عندما قبل السلطان سنة 1518 وضع مدينة الجزائر تحت حمايته، أرسل الى خير الدين جيشا قوامه ألفي (2000) جندي اختارهم من خيرة الجيش التركي وهم ما يسمون بالانكشاريين (ويطلق عليهم اسم ياني سيري بالتركية)، ثم أرسل 4000 متطوع تركي جاؤوا لدعم القوات العسكرية الاولى .

وبمجرد وصولهم الى مدينة الجزائر شكلوا طبقة شعبية منفصلة تميزت بعجرفتها واحتقارها للسكان الآخرين). انهم يستفيدون من اعفائهم من الضرائب (وكذلك من رسوم الايلولة أو التركة).ويتهربون من السلطات القضائية العادية لانقاذ ضباطهم الذين يستطيعون الحكم عليهم وسجنهم وضربهم بالعصا أو الموت (255) .

هؤلاء الانكشاريون يعيشون عازبين بالقرب من القدر ، فشعارالجيش ، استعراضه العظيم ورايته هي قدر من البرونز (كزان) يجتمع حوله الرجال مرة في اليوم لوجبة واحدة ، تماما كما كان يفعل البدو الرحل الاتراك في أسيا الوسطى في سالف العصور . وقلب هذا القدر رأسا على عقب يعني التمرد والعصيان ، وأثناء ذلك فهم يلجأون بالقرب من الثكنة حتى يسلموا من العقاب (256) . وتحمل أجسامهم من جهة أخرى اسم موقد أوجاك (أوساك) وهو اسم المكان الذي يعلقون فيه القدر . وانتهى هذا التمرد والعصيان بانشاء الدولة ، وباختصار فان كلمة أوجاك تعني الوصاية على مدينة الجزائر .

---

(255) جولـيان : " تاريخ افريقيا الشمالية " الجزء الثاني ص 259 .

(256) أندري كلوت : " سليمان العظيم " ص 391 .

ويحصل الانكشاريون البسطاء على رتبهم العسكرية بالأقدمية حتى القائد العام للميليشيا (أغا) يصبح في ظرف شهرين (مانسول أغا) كلقب شرفي أو فخري .

ويكون راتبهم العسكري زهيدا جدا ثم يزداد في كل سنة خلال السنوات الخمس الأولى : ويمكن ان يزداد بعد القيام ببعض الاعمال المأثورة . ماعدا جنود المشاة الذين يتركز عملهم بالأساس على حفظ النظام وجمع الضرائب .

وتستغرق مدة خدمتهم ثلاث سنوات : سنة في مدينة الجزائر ، وثانية داخل البلاد وثالثة عطلة بدون عمل .

سكن مدينة الجزائر خلال فترة حكم البربر أي حتى نهاية القرن السادس عشر من أصل 6000 جندي حوالي نصفهم . وكانت مدينة الجزائر في سنة (1533) تحتوي على 1800 تركي اضافة الى أولئك الموجودين خارج المدينة وعددهم حوالي 2600 في مدينة تنس وقسنطينة (257) . ولذا فهم يشكلون نسبة ضعيفة من سكان البلاد ولكنهم غير محبوبين ومقبولين من قبل باقي سكان مدينة الجزائر : فالميليشيا اعتبرت نفسها وكأنها في بلاد محتلة ومقهورة ولم تتوقف عن جبي الضرائب من السكان الفلاحين أو المدنيين ، كما أصبحت الضرائب العينية بعد مدة قصيرة قوانين شرعية مستحقة الأداء ، كما كما فرضوا على السكان مظاهر احترام خارجية ، وكل عضو من هؤلاء الاعضاء أخذ لقبا مشهورا وعظيما هو لقب السيد ... ومن السهل معرفة وادراك أي تشويش واضطراب يحمله هؤلاء القادمين الجدد من العادات السياسية والعسكرية البربروسية ومن قادتهم القدامى. وكان يوجد بين كل هؤلاء الرياس القدامى نوع من التفاهم والتضامن الاخوي والودي الذي أمكنه ملائمة استبدادية وسلطة الواحد منهم ولكن بدون

---

(257) أرشيف سيمونكاس في المجلة الافريقية XVIII ص 267.

غطرسة ولا كبرياء ولا حتى سفاهة ووقاحة هؤلاء الذين تمت معاملتهم بكل سرور وطيبة خاطر (258) .

ان الصورة التي انطبعت لدى الجمهور عن الانكشاريين ظلت على العموم بأن الجيش الانكشاري جيش غير منظم ، صنع وهزم الحكومات ، يتمرد لأقل سبب ، كون دولة داخل دولة بحيث صار قليلا فقليلا لا يعتمد على السلطات في استانبول .

واذا كانت هذه الحقيقة موجودة فانه لم يكن قد حدث شيء بعد في سنة 1531 .

وقد أبقى بربا روس هذا الجيش على الحياد خلال فترة حكم البيلارباي كلها في ذلك العصر وكان ديوان الانكشاريين لا يقوم سوى ببعض الاعمال الشكلية وعلى الخصوص الانتخابات للمناصب المختلفة حيث تم قبول بعض المسؤولين الاساسيين في ديوان الباشا الذي يجتمع كل يومين أو ثلاثة أيام ، حيث تستعاد هناك الحقوق ويتم التشاور والتداول في أمور الدولة .لكن سلطة الدولة لم تعمل سوى طلب الأراء وعلى ضوئها تقرر ضمن دائرة اختصاصها (259) وحتى سنة 1567 لم يسمح للانكشاريين الصعود على السفن لأن هذا المجال محجوزا للرياس فقط .

ولا يوجد لدينا أي عقد أو وثيقة مكتوبة تبين لنا أن باربا روس كان يأخذ بأراء " البولداش " لقيادة خط سير حياتهم بل على العكس كان هو الذي يحكم في كل شيء (260) . وعندما حكم خير الدين ومرافقوه المدينة صار تأثيرهم تافها لا معنى له . ولكن مع مرور الزمن ومع وصول دفعات جديدة من الجنود بدأوا يتميزون عن الرياس ، ويقللون من أهميتهم حتى أصبحوا هم أسياد مدينة الجزائر الحقيقيين .

---

(258) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر" ص 47 .
(259) نفس المصدر السابق ص 48 .
(260) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 48.

اليـــهـــود :

نستعرض بسرعة التجمع اليهودي وأهميته في المدينـــة .

لقد سمح خير الدين لمؤسساتهم تحت الوصاية ، بحيث تم تحديد نشاطاتهم التجارية (261) . كما أنهم يستطيعون الوصول الى مراكز عالية بعد قبولهم في المدينة ، كما أنه تم احترام ثقافتهم ، وأجبروا على ارتداء لباس يختلف عن اللباس الذي يرتديه بقية الجزائريين ، انهم يزدحمون في حارات خاصة بهم ذات كثافة سكانية عالية ويمتلك الكثير منهم بيوتا خارج هذه الحارات وكذلك منازل غنية في الريف .

كما لا يسمح لنسائهم بدخول الحمامات الشعبية (262) ، وهم يأتون في الدرجة الثانية بعد العبيد المسيحيين من حيث تزويدهم بمياه الينابيع .وزيادة على ذلك فان هذا التجمع اليهودي يجب عليه دفع ضرائب للحكومة تقدر بـ 1500 دوبلاس في السنة (تعادل 600 قطعة ذهبية) بحيث يدفع كل واحد منهم حسب امكانياته .واذا أراد أحدهم الدخول في الاسلام يجب عليه قبل ذلك اعتناق المسيحية : أي بعد أن يكون قد أكل لحم الخنزير ويقبل التخلي عن معتقده حتى يصبح مسلما لذلك فهو يحمل اسم " سلامي " الا أنه يوجد قليل من هؤلاء المرتدين الذين يفعلون ذلك (263) .

ومع ذلك فان هذه الاقلية تتمتع بامتيازات اقتصادية كبيرة (264) . ويمارس اليهود حرفهم وصناعاتهم على نفقة المسيحيين تارة وتارة أخرى على نفقة المسلمين ، ويعتبرون على الخصوص الوسطاء الوحيدون فيمايخص العلاقات الدبلوماسية أو التجارية بين أوروبا

---

(261) ليسبيس : " مدينة الجزائر " ص 125 .
(262) هاييدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 207.
(263) غرامونت : " دراسات جزائر " ص 78
(264) تيوبير ديلوف : " افريقيا البربرية " ص 189 .

والبربر (265) ، كما يلعب اليهود دورا هاما في عملية بيع وشراء الغنائم (266) .وهم أول من اخترع الكمبيالات واستخدموها في معاملاتهم مع مراسليهم من كل المدن الاوروبية ، وهم يعتبرون أسياد العالم في جمع الثروات والأموال (267). حيث يعملون بصياغة الذهب والصيرفة ويقومون بطرق العملة الذهبية والفضية والنحاسية ولا ينازعهم أحد في ذلك .

كما يمتلكون عبيدا مسيحيين و يعاملونهم معاملة جيدة لأنه اذا اشتكي أي عبد من سيده اليهودي فان الباشا يستطيع أن يصادر هذا العبد من اليهودي والذي لا يمكن للباشا أن يفعل ذلك مع سيد مسلم (269). ويقوم الأباء المنقذون عادة باسكان الاسرى المحررين في منازل اليهود حتى يأتي موعد سفرهم النهائي (270). ورغم التعصب (بحيث لم يتم اضطهادهم وتعذيبهم بعد) فهم منتشرون في كل مكان في المدينة ويشكلون عنصرا هاما جدا .

النساء :

كما هو معروف فانه من الصعب تكوين فكرة عن المجتمع النسائي في البلاد الاسلامية ، فالنصوص التي تخص العصر الذي يهمنا كانت نادرة جدا ، فماذا نقول في تلك التي تتعلق بالنساء .

لم يذكر غزوات خير الدين شيئا أبدا عن هذا الموضوع ، واذا كان هاييدو قد تكلم باسهاب عن هذا الموضوع الا أنه لا يعرف بوضوح عادات المسلمين الاصيلة ويبقى حكمه عليهم هو حكم أي أوروبي مندهش

(265) توماس الجندر بواسطة تيوبير ديلوف OP.cit ص 189.
(266) سيوبرا ص 41 .
(267) تيوبير ديلوف :"افريقيا البربرية " ص 189.
(268) أوديل : " فن الصياغة الجزائرة والتونسية " ص 189.
(269) هاييدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 90 .
(270) هاييدو : " في المجلة الافريقية " XLI ص 167.

من الفرق الموجود بين الحياة اليومية للنساء الجزائريات والحياة اليومية لنساء بلاده .

لمعرفة المجتمع المغربي في العصر الذي يهمنا دراسته يجب أن ندرك بأننا في بلاد البربر وليس في بلاد الشرق حيث تتمتع المرأة بحرية كبيرة جدا داخل أسرتها أو عشيرتها وهي غالبا ما تمارس صلاحيات كبيرة (271). وأضاف هاييدو قائلا أننا نلاحظ تأثير اللاجئين الاندلسيين على مدينة الجزائر : " فالعالم النسوي في اسبانيا الاسلامية قد نشأت في مجتمع سعيد ، وهن يشكلن عناصر اخلاقية وثقافية مختلفة ويتمتعن بحرية أكبر من تلك التي تتمتع بها النساء في شرق الامبراطورية (272) .

كل هذا يفسر حرية الزواج والمصاهرة التي تظهر من خلال النصوص .

ان معلومات أسرى القرن السادس عشر أثبتت عدم صحة الوثائق المعاصرة التي قمنا بالبحث من خلالها وبرهنت أن النساء كنّ يتمتعن بنوع من الاستقلال الذاتي : فمثلا كنّ يعالجن بأنفسهن حالات اطلاق سراح عبيدهن وشرائهم ثانية (273) .

وكما لاحظنا سابقا فقد كنّ يقدمن حليهن وذهبهن للمشاركة في عمليات القرصنة وشيّدن (275) " الهوابين " ويتصرفن بأموالهنّ بحرية تامة (276) .ولا ينقصهنّ أي ميزة أو خاصية : فالواحدة فيهن جميلة ، شابة وعندها الكثير من المال التي تأخذه معها (277).

---

(271) عطالله دهينة : " دول الغرب الاسلامية" ص 3 .
(272) والتر : " المرأة في الاسلام " ص 107.
(273) أراندا : " العلاقات " ص 62 ـ 63
(274) سيوبرا : ص 41 ملاحظة 2 . وملاحظة 194 حسب ترتيبنا .
(275) المجلة الافريقية XIII ص 25
(276) سيرفونتيس : " الاسرى " في دون كيشوت ص 373 .
(277) نفس المصدر . ص 375 .

وفيمايخص الزيارات العديدة المتبادلة بينهن فانه لا يوجد زوج يمنع زوجته من هذه الزيارات ولا يستطيع أن يعارض رغم أنه يريد ذلك واذا ما أراد الأزواج الضغط عليهن ومنعهن من تبادل الزيارات فانهن يفسخن زواجهن فورا ... (278) .

اننا بعيدون عن الصورة الكلاسيكية للحريم المحروسات من قبل الاينوكس (ENNUQUES) . والنساء اللواتي ليس عندهن عبيد وحتى اللواتي عندهن الكثير من العبيد فانهن يخرجن وحدهنّ عندما يرغبن في ذلك : وهنّ بذلك يرتكبن الآثام والأخطاء عن غير قصد ودون الانتباه الى ذلك (279) .

ورغم أننا نراهن متحررات جدا الا أنهن عندما يخرجن يلبسن الحجاب ، كما يحتجبن عن عيون زوار أزواجهن . ولا يدخل الى البيت لا الاتراك ولا المغاربة ولا حتى المرتدون الا بعد أن يذكروا عبارة استعدوا . اجعلوا الطريق فارغة ، وبسماع هذه العبارة تجري النساء فورا للاختباء في بيوتهن (280) . وهذا القانون لا يشمل المسيحيين أحرارا كانوا أم عبيدا ، حيث أن النساء المسلمات يظهرن أمامهم دون تحفظ (281) ويسمحن لهم برؤيتهن بحيث يحافظون عليهن أكثر مما لو كانوا منصفين وعادلين (282) ، ونفهم من مؤلفات الاسرى بأنهن كن يستسلمن بطيبة خاطر وسرور لفتنتهم وجمالهم : ومن المؤكد أن العزلة التي تفرضها عادات الشرق تجعل المرأة هناك شاردة الذهن دائما وفضولية جدا تريد معرفة كل ما هو مجهول بالنسبة لها ، لذا نستطيع أن نجزم القول بأن العبد نادرا ما يتأخر عن الوقت المحدد وذلك بفضل سيدته والاب الوقور دان الذي سجل

---

(278) هاييدو : " طوبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 203
(279) نفس المصدر ص 109 .
(280) نفس المصدر ص 96
(281) = = ص 96
(282) سيرفونتيس : " الأسر " في دون كيشوت . ص 382 .

بنفسه هذا العمل فذكر بأنه يعتبر سببا رئيسيا يجعل العبيد ينكرون اعتقادهم بالمسيحية (283) .
آخذين بعين الاعتبار من جهة وفرة الكتابات التي تأتي من بعيد .

أما بالنسبة الى حياة النساء اليومية حسب وصف هاييدو فانها تبقى قريبة جدا من تلك التي عرفناها في الزمن المعاصر والتي نعتقد بأنها هي نفسها التي كانت في بداية القرن السادس عشر .

واذا لم يصادف ان كان عندهن عبيدا لخدمتهن وهي حالة عدد قليل من النساء ، فانهن يتفرغن للعناية بأطفالهن ولترتيب وتنظيف منازلهن . واذا وضعنا هذا العمل جانبا فانهن يقمن بسبعة أعمال أخرى هي :

1 - يتجملن ،يلبسن ويذهبن الى الحمام بعد الظهر مصحوبات بعبيدهن الذين يحملون لهن أقمشتهن وألبستهن الداخلية وعطورهن .

2 - يقمن بزيارة أصدقائهن وصديقاتهن .

3 - يذهبن لقضاء فترة بعد الظهر في بيوتهن الريفية ، حيث الرجال المتزوجون قليلون ونوعا ما أحرارا يملكون على الاقل بستانا صغيرا (285).

4 - يقمن بزيارة الاولياء المسلمين بصحبة أطفالهن الشباب .

5 - يزرن المقابر وخاصة يوم الاثنين صباحا .

6 - يجتمعن الواحدة عند الاخرى ليتسامرن ويبحثن عن حظوظهن لمعرفة مستقبلهن . وهنّ شغوفات جدا بالشعوذة والسحر ويقمن باجراء

---

(283) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 60
(284) هاييدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 202.
(285) نفس المصدر السابق . ص 203 .

عدة عمليات تكون نوعا ما سحرية بهدف الحصول على تكهنات وأخبار المستقبل . اللعبة القديمة " للبوقالا " كانت تحظى بشهرة كبيرة في ذلك العصر (286) .

7 ـ وأخيرا فانه لا يفوتهن أي عرس أو حفلة زواج أو ختانة ولايكتفين بقضاء كل النهار مشغولات بهذه الحفلة الراقصة بل يبقين طوال الليل أيضا بحيث يجب على الزوج البقاء في انتظار زوجته حتى تعود الى المنزل (287). والنساء لا يلعبن أي دور في حياة المدينة . ولا يسمح لهن حتى بدخول المساجد (288) .

الطلاق ظاهرة مألوفة جدا : والأسباب التي تؤدي الى وقوعه بكثرة من جانب المرأة هي السلوك الغير لائق للرجل ، ومن جانب الرجل هي المعاملات السيئة للمرأة تجاه زوجها ، الضعف والعياء، عدم قيامها للصلاة والادمان على الخمر (289) .

ويتم عقاب المرأة الزانية (الخائنة لزوجها) اذا تم التأكد من مشاهدتها مع رجل مسلم مرة أو مرتين . وفي المرة الثالثة تعاقب المذنبة برميها في البحر بعد ربط حجر في عنقها . واذا كانت تخون زوجها مع مسيحي في المرة الأولى تجلد المرأة أمام الناس وفي المرة الثانية يرمونها في البحر . أما بالنسبة الى شريكها في الجريمة فله أن يختار أن يصبح مسلما أو يحرق حيا .(290) .

اننا نقف مدهوشين أمام هذا الوهم الخارجي لعالم منغلق وله أسراره الذاتية .ولكن غياب الوثائق الاخرى تجعلنا نتصور حياة سعيدة ، سهلة ، بعيدة عن التعقيد ، يتمتع أهلها بحرية كافية في كل الاحوال بعيدة جدا عن كل احتجاب كما هي عليه في بلاد الشرق .

---

(286) المجلة الافريقية ص 298 .
(287) هاييدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 203.
(288) نفس المصدر السابق ص 217 .
(289) نفس المصدر السابق ص 229 .
(290) = = = ص 232 .

ومع ذلك يجب أن نتذكر بأن القرن السادس عشر كان عصر اتصالات هامة ، ومع وصول الاتراك حدثت تغيرات عميقة ، وقد شعر بذلك شرطة تنظيم البغاء ، فالذي كان يوجد حقا في بداية العصر ليس بالضرورة أن يبقى حتى نهايته على نفس حالته .

وجلب الجيش التركي والمرتدون عن الدين وذوي الاخلاق الفاسدة معهم عادات جديدة الى مدينة الجزائر ووصفها المؤرخون بأنها غير لائقة : " الرياس والمشارقة يلبسون أولادهم لباسا فاخرا ثمينا (وكأنهم نساء ملتحية) هذا اللباس من أجمل الثياب الدمشقية (نسبة الى دمشق). مثل الساتان والمخمل . حيث يرتدونه بدلال ونعومة زائدتين حتى لتخالهم من أجمل النساء "(291) .

وبالنسبة لهم فان الاكثر شرفا فيهم هو الذي يستطيع جمع أكبر عدد ممكن من الجيتونات (GITONS) حتى أن نساءهم صرن يغرن منهم ويحسدنهم ... وهم يمارسون اللواط في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع وهو عمل لا يفاجيء أحدا هنا (292) . والخطايا المنكرة الفظيعة التي لا تغفر والتي ذكرها الأب الفاضل الصالح دان مذكرا بأنه لا يفصلنا زمن بعيد عن المحكمة الفرنسية التي تعج بصغار هنري الثالث .

وحتى نختم هذا الفصل عن النساء نضيف بأننا لم نتكلم عن البزة أو الثوب التي كانت ترتديه النساء وذلك لأننا لم نجد أي وثيقة سابقة عن وصول الموضة التركية ونعتقد بأنها تطورت حسب العادات والتقاليد التي كانت متبعة ، ولا شيء يسمح لنا القول بأن النساء في سنة 1531 كنّ يرتدين نفس الاغطية واللباس الذي ارتدينه في نهاية القرن .

---

(291) هايبدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 49 .
(292) نفس المصدر السابق ص 312 .

الـــدّيـــــن :

كان المذهب المالكي هو المذهب الوحيد في مدينة الجزائر قبل تأسيس باربا روس عهد الوصاية . ونتيجة لسيادة الدولة العثمانيـــة فقد عملت على نشر المذهب الحنفي (293) ، ولكنهم لـــم يفرضـــوه على سكان المدينـــة .

الأوامر الوحيدة للوافدين الجدد (العثمانيين) كانـت النظـام والضريبة ، بحيث كان هذان الأمران مضمونان ، وأثر الاتـراك قليـــلا في البنية السياسية والمذاهب الموجودة سابقا ، ولم يمارسـوا فـــي حياتهم أبدا عمليات التعذيب والاضطهاد المنظم (294) .

وعلى العكس فقد كان هناك مذهب التحرريين (أنصـار الحريـة السياسية) الذي ساد في عهد ولاية خير الدين اذا كان صحيحـا أن مفتي الحنفية ممثلا للاتراك كان له حضور أكثر من زميله المالكي(295). واذا كان اسم سلطان استانبول قد ذكر في الصلوات (296) فـــان المالكية التي ترتبط بها الصوفية والمرابطيةبمسلكها الشعبي بقيـت لمدة طويلة شكلا من أشكال الاسلام الاكثر انتشارا والاكثـــر تجـــذرا ورســـوخـــا (287) .

ان أسيـ'دمدينة الجزائر الذين لم يكن لديهم أي انشـــغـالات دينية لم يقوموا بأي جهد لتطوير الاعمال الثقافية . انهـــم مشغـولون بمشاكل الدين كعمل عكسي يمكنهم الحصول عليه من حكوماتهـــم التـــي تسهر على أمنهم وجلب الهدوء للبلاد . وهكذا فانه كان عندهم سياسة تأخـي الديانـــات .

---

(293) لاووســت : " الخلافات الاسلامية " ص 317 .
(294) مايكـــل : " الاسلام وحضارتـه " ص 243.
(295) المجلة الافريقية X ص 227 .
(296) ساندررانج ودنيس :تأسيس دولة وصاية مدينة الجزائـــر . الجزء الأول . ص 194 .
(297) لاووســت : " OP.cit ص 317 .

ورغم أننا نعرف تأثير المرابطين (الأولياء المسلمين) والانظمة الدينية المطبقة على عامة الشعب الا أن حكومة الاودجاك قد نجحت في اكتساب دعمهم ومساعدتهم أو على الاقل كانت تكسب حيادهم في بعض الحالات (298) .

كما نتذكر الدور الذي لعبه خلف الولي المسلم سيدي عبدالرحمن في التوفيق بين عروج وسليم التومي (299). وازدهرت الاماكن المقدسة في هذه المدينة ، جزائر القرن السادس عشر ، ويمتلىء الشاطىء الشرقي بالاماكن المقدسة حيث كان مسلموا المدينة العليا وعلى الاخص منهم العبيد السود الذين يعودون الى عصور محددة يأتون الى هذه الاماكن ليقدموا الاضحيات وذلك بذبح الدجاج،أوالجذع الاسود (صغير الثور) والكبش التقليدي المألوف (300). ونفس الشيء بالنسبة الى عيون الماء السبعة الموجودة على شاطىء البحر والتي كان يرتادها العبيد السود يوم الاربعاء ويقومون بذبح الدجاج على شرف جون السودان طبقا للعادات القادمة من الجزء البعيد (301) .

ان الورع والتفاني الشعبي الحيوي جدا لسيدي عبدالقادر الجيلاني: هذا الولي الذي ولد في بلاد الفرس سنة 1078 ومات عن عمر يناهز 91 عاما في بغداد حيث دفن في مصلاه (مسجده) في باب عزون . وعند خروج القراصنة من هذا الباب يقومون بتحيته باطلاق طلقة مدفع . ولجأ كويكونك الى هذا الملجأ حيث كان في مأمن من

---

(298) بيل : " الاسلام في بلاد البربر " في " تاريخ ومؤرخي الجزائر" الجزء الاول . ص 194 .

(299) سيوبرا ص 21 .

(300) ديبون وكوبلاني : " الاخوة الدينية في الاسلام" ص 113.

(301) شابويس : " الذكرى المئوية للجزائر الفرنسية" ص 34.

ملاحقات الحكومة مهما كانت الجريمة التي ارتكبها .

ان سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي توفي في مدينة الجزائر عام 1468 دفن في قبره خارج الاسوار والتحصينات (302) وكان يعتبر حامي المدينة . وسيدي فرج ، سيد آخر من القراصنة الذي كانوا يحيونه أيضا بطلقة مدفع ويطلقونها عندما يتجاوزن شبه الجزيرة باتجاه غرب مدينة الجزائر ... سيدي بتكا الذي زعموا أنه ظهر ثانية في سنة 1541 عندما اعتبر هجوم شارل الخامس دليلا للنصر.. سيدي محمد الشريف المتوفي سنة 1542 ، سيدي يعقوب ، سيدي بوقدور ووالي دادا كلها أسماء لأولياء مسلمين مشهورين يشدون حماس الناس اليهم .

الى جانب هذا الورع و التفاني فان قليلا من ضعيفي الايمان قاموا ببناء مساجد كثيرة في نفس الوقت ولم نعثر لها على أي أثر في أيامنا هذه ولكن بواسطة النصوص المكتوبة والاوصاف ، استطعنا أن نعرف على الاقل 2 : الاول شيده خير الدين سنة 1520 وتكلمنا عنه سابقا والذي يعرف باسم مسجد الشاووش حيث كان المكان المخصص لصلاة ضباط الشرطة والجيش النظامي في القصر. والثاني يقع قريبا جدا من مدخل الجنينة الرئيسي وهو يشكل امتدادا لواجهة القصر القديم (303) ويعرف باسم جامع السفر والذي شيّد سنة 1534 من طرف مسيحي د خل في الاسلام بعد أن كان عبدا عند خير الدين الذي أعطاه حريته وجعله قائدا وسمي صفر بن عبد الله (304).

كما أن الورع والتفاني لمساجد ومزارات الاولياء أدى الى بناء العديد من الزوايا تحتوي على مساجد مثل زاوية سيدي عبد الرحمن

---

(302) في مكان المقام الحالي الذي بني سنة (1611(جون بيرك) : داخل المغرب .. ص (209).

(303) رشيد بورويبة : "الاوصاف التذكارية لمساجدالجزائر" ص 167.

(304) نفس المصدر ص 72 .

في أسفل شارع البحرية ، وزاوية سيدي محمد الشريف ...الخ (305).

وجنبا الى جنب مع الديانات الغير مسلمة (اليهودية والمسيحية) فان سياسة بربروس بقيت متساهلة وميالة للتسامح .

ورأينا بأن اليهود كان عندهم أماكن عبادتهم وأن الحكومة تركتهم يمارسون دينهم بكل هدوء ، أما بالنسبة للمسيحيين فقد عاملتهم الحكومة بنفس ما عاملت به اليهود وتم بناء كنائس خاصة بهم داخل سجون الاشغال الشاقة . والتي يقام فيها القداس طيلة العام . وفي أيام الاعياد و الاحتفالات لا تتسع هذه الكنائس الموجودة داخل سجن الاشغال الشاقة للناس حيث أن الكثيرون منهم لا يجدون مكانا للصلاة فيه لذا فهم يجبرون على عمل القداس في الساحة ، وفي هذه المناسبة يستغل حراس السجن من الاتراك والموريون الفرصة ولا يتركو ن أي شخص يمر دون أن يدفع حق الدخول مما صار يعود عليهم بربح كبير (306) .

وصرخ سيرفونتيس قائلا : ان هناك شيئا يحيرني كثيرا وهو أن هؤلاء الكلاب الخونة تركونا نراقب ونمارس ديننا (307) كيف نفسر هذا التسامح في عصر قل فيه الحلم والتسامح والتساهل. كل شيء يدعو الى التساؤل في هذه الامبراطورية التي خلقها خير الدين بحيث يحتاج الى كل طاقاته لتأسيس مملكته . ويعتبر خير الدين رجل حرب ورجل دولة ولكنه ليس تقي ومؤمن . ان اعتقاداته لم تكن عميقة وراسخة ليفضل الجانب الروحي على السلطة .

ماذا يجلب له الدين . في مخططه وحسب قياساته فان كل شيء يجب أن يساعد على ازدهار اقتصاد المدينة ويساعد كذلك على فرز ما سيصبح ثروة عظمية لمدينة الجزائر .

---

(305) أسبر : العملة التركية الصغيرة التي تعادل1/125 ريال من الذهب .

(306) هاييدو : "طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص 394.

(307) سيرفونتيس : "سجون مدينة الجزائر" نقله كازيناف في نشرة الجمعية الجغرافية سنة 1924. ص 112.

اللـــغـــة :

ان سكان مدينة الجزائر من الاصول التركية والبربرية والاندلسية واليهودية والمسيحية قدموا من كل دول أوروبا .. حتى أصبحت مدينة الجزائر خليطا من هؤلاء البشر .

ولا يبدو بأن هناك مشكلة في الاتصالات بين هذه التجمعات التي جاءت من كل النواحـــي .

ماهـــي إللغـــة التـــي يتكلمونـــها داخـــل المدينـة ؟

اللغة الاولى هي اللغة العربية بالتأكيد . ويتكلمون أيضا اللغة التركية وذلك منذ وصول الاتراك الاسياد الجدد للمدينة . ولكـن منـــذ زمن طويل كان يوجد على السواحل الجزائرية منصات تجارية ، ومنـــذ زمن بعيد أيضا كان يتوجب على هؤلاء اجراء محادثات مـــع الادارة التركية ومع السلطات المحلية وكذلك مع القراصنة . لذا تكـونـــت لغة صبير (أي مزيج من اللغة العربية والاسبانية والفرنسية ...الخ). وهي اللغة التي تربط الاوروبيين بالموريون (المغاربة) الـذيـــن يعيشون في منطقة حوض البحر المتوسط الغربي وحتى علـــى مستـــوى الشرق كذلك (309) . هذه اللغة الهجينة تسمح لهؤلاء الناس مـــن الاعراق والاصول المختلفة بالاتصال فيمابينهم . هذه اللغة التي يتـــم التحادث بها بين الاسرى المغاربة على طول السواحل البربرية وحتـى استانبول والتي هي ليست بالعربية ولا بالاسبانية وليست لغة أي أمة من الأمم ولكنها خليط من كل اللغات (310) .

---

(308)

(309) لانلـــي : " فرنسيو شمال افريقيا " ص 38 .

(310) سيرفونتيـس " الآســر " في دون كيشـوت . الجـــزء الاول ص 383 .

هذا اللسان الافرنجي أضاف هاييدو ، يستعمله السكان للتكلم مع المسيحيين ويستخدمه المسيحيون كذلك : وهو عبارة عن تجميع للمصطلحات والكلمات تتكون في معظمها من اللغات الايطالية والاسبانية والبرتغالية ، بحيث لا يتم التقيد والاهتمام لا في الحالات ولا في الاشكال ولا في الازمان ، انه بقية متشابهة تماما لتلك التي يتعلمها السود الجدد القادمين من بلادهم (311) .

والحق يقال بأن هذه اللغة تحتوي على القليل من الكلمات العربية واذا أطلقنا عليها اسم " لغة افرنجية" فلأنها تتكون على الخصوص من كلمات ايطالية أو اسبانية وبرفانسية . وتعلم العرب المغاربة القاطنين في المدن ، هذه اللغة المبسطة أو المختصرة نتيجة للمعاملات التجارية والمحادثات في المحصلة ، فانها لم تكن لغة فرنسية ولا لغة الموريسك (السكان المغاربة) ولكن الفرنسيين من جهتهم كانوا يعتقدون بأنها لغة الموريسك والموريسك بدورهم يعتقدون بأنها لغة الفرنسيين (312) .

وكان كل أناس البحر يعرفونها قليلا أو كثيرا لانها كانت مستعملة في جزء كبير من حوض البحر المتوسط ، وهذا يفسر كيف أن الوافدين الجدد وعلى الاخص منهم الأسرى يندمجون بسرعة في عادات المدينة . وانتقلت هذه اللغة بدون شك من الموانىء الى داخل البيوت الجزائرية بواسطة العبيد :وأخبرنا سيرفونتيس و أراندا فيمابعد بأن أسيادهم كانوا يفهمونها ويتكلمونها (313). وكما أن هذه اللغة تخلو تماما من أسس القواعد وهي أكثر قربا الى اللهجات الاقليمية المحلية منها الى كونها لغة ، وهي تشكل عامل الوحدة داخل تجمع سكاني متباين ومختلف (314) .

---

(311) هاييدو :"بواسطة كازيناف في النشرة الجغرافية 1924.ص 112.

(312) لانلي : " فرنسية افريقيا الشمالية" ص 38.

(313) سيرفونتيس" الاسر" في دون كيشوت .الجزء الاول . ص 384.
وأراندا : " العلاقات " ص 55.

(314) هذه اللغة الافرنجية ظلت تستعمل حتى سنة 1830.

الحياة اليومية :

الشارع ، الحوانيت والمتاجر ، لا يذهب أي شخص الى المدينة وهو راكب حصانا (315) ، الا اذا كان صاحب مقام أو موظفا كبيرا، يتقدمه العبيد الذين يفتحون ويخلون له الطريق . في الواقع (لا أحد يدهش) فالشوارع تتكون من الفراغات المتروكة بين المنازل المبنية الى جانب بعضها البعض وهذه الشوارع ضيقة وملتوية . وورشة العمل هذه التي نتصورها هي مدينة الجزائر في سنة 1531 حيث ترتفع العمارات بشكل فوضوي دون وضع أي مخطط لها .

ان استقدام السكان يتم بشكل هائل وسريع حتى تأخذ المدينة وجها آخر .

ففي حارة التجار الواقعة على شارع الاسواق الكبير الذي يصل باب عزون بباب الواد ، أضيفت حارات وأحياء أخرى تحتوي على حوانيت في جزئها المقابل للجامع الكبير والميناء : وهذا يعتبر منطقيا بالنسبة لمدينة تعيش على ما يأتيها من البحر .

هذا القسم من الارض الواقعة بين باب الواد والساحل كان يعتبر كله الاكثر ملائمة لمدينة سميت لتكون مدينة تجارية (317) .

تتركز الحياة التجارية فقط في أسفل المدينة (أوتا : السهل). أما سفح الجبل فقد بقي مخصصا للسكن،والشوارع تتألف من مداخل بسيطة على أبواب المنازل ، حيث يوجد عدد كبير من الممرات بدون مخارج ، ونلاحظ غياب الحيوية والنشاط في هذه الممرات ، انها ليست شوارع يمكن للمرء أن يتسكع فيها (318).

---

(315) هاييدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 234.
(316) باسكالي : " تطور الشارع" في الوثائق الجزائرية 1955.ص177.
(317) نفس المصدر ص 178.
(318) باسكالي : " تطور الشارع " في الوثائق الجزائرية 1955 . ص 188 .

أي تباين ومفارقة هذه مع غليان المدينة السفلي .

ويمتلىء شارع السوق الكبير بالمخازن والمحلات التجارية من كل الانواع .. وهذا الشارع زاخر بالناس مملوء بالضجيج وفي بعض الاحيان يكون صاخبا ومهتاجا ، شارع باب عزون هذا لا يعرف أيضا التخطيط المستقيم حيث يبلغ عرضه بين مترين ومترين ونصف (2 ـ 2.5)م (319) ، انه يلائم ويحتمل عدة تعيينات تجارية والتي تعتبر الاكثر ضجيجا والاكثر نتانة حيث توجد في الاماكن الاكثر بعدا عن المدينة : على مقربة من الابواب .

ويصل الشارع الرئيسي الآخر الى باب البحرية . انه مغطى الى نصفه من حيث العرض بواسطة خرج المنازل . وفي ذلك الشارع توجد أسواق الذهب ، السباكين ، الرصاصين ، النقاشين على القرون وحتى الصباغين (منظفي الثياب) (320) .

المحلات التجارية كلها متشابهة : مرتفعة بالنسبة الى الشارع ، وهي في بعض الاحيان تكون عبارة عن مشكاة (فتحة أو كوة في حائط) بحيث يتسلق اليها صاحبها في الصباح بواسطة سلم بدائي يتكون من الحجارة أو من ثقوب داخل الحائط . وفي بعض الاحيان يجب على التاجر أن يتسلق بواسطة حبل .. ويبقى الزبائن في الشارع حيث يتم معاينة الاشياء والتي تعرض عليهم قبل شرائها . وتخفض المصاريع الخشبية في النهار ، أما في الليل فتستعمل لاغلاق الحانوت (321) . كما أنه لا يوجد اضاءة أخرى سوى تلك التي تأتي من الشارع، لذلك فهم يغلقون محلاتهم عند مغيب الشمس .

---

(319) هاييدو يبالغ في وصف العرض عندما يذكر بأنه 10 أمتار.
(320) نفس المصدر السابق في (319) ص 188.
(321) أوديل : " الاخوة الجزائرية التونسية " ص 70.

ويمكن أن نجد في داخل هذه الحوانيت بالاضافة الى ما يحصلون عليه من غنائم القراصنة والذي ينتجه الريف كل المواد الغذائية التي تحضرها السفن التجارية والتي تتعامل بكل حرية تجارية مع مدينة الجزائر .

قبل حوالي شهرين تقريبا رست سفينة فرنسية كبيرة في الميناء : لقد جلبت القماش و الاغطية والخمر والملح والتوابل ، وكانت مشغولة بتحميل الشمع ونسيج الكتان والصوف ـ 1536. (322).

وتصدر مدينة الجزائر القمح والشعير والارز والانعام والماشية والصوف والزيت ، الزبدة ، العسل ، الزبيب ، التين التمر والحرير . أما بالنسبة للجلد والشمع فهي تختلف عن سابقاتها بحيث تحتاج الى تصريح من الباشا من أجل بيعها للمسيحيين : " سمسرة الجلود والشمع تقتصر على الاتراك والموريون فقط فهم وحدهم يستطيعون شرائها من أهل البلد ويبيعونها ثانية الى المسيحيين (323).

وكانت الشوارع ضيقة ومكتظة وخاصة الشوارع التجارية ، فان أراد أحد التحدث مع صديق له يلتقي معه صدفة فانهم يذهبون للجلوس في مقهى مغربي . وهناك يجلسون على حصير من القصب يشربون القهوة ، يدخنون الغليون ، ويلعبون الضامة أو الشطرنج لكي يمضي الوقت بدون فائدة أو منفعة (324) .

انه لشيء عجيب ، يوجد أيضا حانات وخمارات في مدينة الجزائر . ويمنع منعا باتا على المسلمين بيع الخمر أو ماء الحياة ، لكن الجنود الاتراك يشربون كل شيء تقريبا وبكميات كبيرة (325).

---

(322) أرشيف سيمونكاس : R A 21 ص 84.
(323) المجلة الافريقية XXV ص 8 و 9.
(324) هابيدو : " طبوغرافيا " في المجلة الافريقية XV ص 318.
(325) غرامونت : " دراسات جزائرية " ص 65 .

ولم أرى في حياتي أبدا أكثر ادمانا على الخمر منهم حتى من الالمان (326) ، ومن جهة أخرى فان القراصنة يجلبون غالبا في غنائمهم ، سفن محملة بالخمور (327). كما منحوا للعبيدالمسيحيين امتيازا لادارة خمارات داخل سجن الاشغال الشاقة. بحيث يدفعون عنها ضرائب مرتفعة لأسيادهم والذين لهم الحق في ادارة هذه الخمارات ، فانهم يعيشون كالأمراء بين العبيد وخلال مدة قصيرة يحصلون على حريتهم (328).

وتبقى هذه الخمارات مفتوحة طوال الليل وأصبحت مكانا عاما يلتقي فيه خليط من القراصنةوالجنود الانكشاريين والعبيد.بالنسبة للذين تعودوا على الخمارات ، أصبحت حياتهم موزونة بواسطة شروق وغروب الشمس . وفي القرن الثامن عشر ، ذكر لنا فونتوري دي بارادي : في مدينة الجزائر يتناولون افطارهم على الساعة السادسة صباحا ويتغدون على الساعة التاسعة ، ويتعشون على الساعة السادسة مساء ، وينام الناس على الساعة التاسعة مساء،ويستيقظون قبل أو في وقت شروق الشمس (329). وتكون أبواب المدينة في الليل كلها مغلقة .

يوم العطلة العادي هو يوم الجمعة. ومع ذلك فهم لا يتوقفون عن العمل أبدا خلال هذا اليوم . وكذلك يفعلون في كل كايام الاعياد ماعدا الايام الثلاثة الاولى من العيد الصغير(عيد الفطر) بحيث تدوم الاحتفالات مدة ثمانية أيام وكذلك في العيد الكبير(عيدالاضحى) و حتى في هذا العيد فان الكثيرون منهم لا يعطلون سوى في اليوم الاول فقط (330) .

---

(326) هاييدو : OP.cit ص 221.
(327) غرامونت : OP.cit ص 65
(328) أرانـدا: " العلاقات " ص 236
(329) قلب الجنة"تونس و مدينة الجزائر"في القرن XVIII ص 259.
(330) هاييدو :" طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص 216.

الضواحي :

بالقرب من باب عزون تمتد ضاحية مأهولة بالسكان وصل عدد منازلها الى 1500 منزل سنة 1573 عندما قام باشا عرب أحمد بتمشيطها لحفظ الامن فيها .

انه الموقع الذي يخيم فيه الأناس القادمين من الريف عندما يأتون لبيع منتوجاتهم في مدينة الجزائر ، يزدحم الناس الفقراء والاطفال البؤساء والحمير والبغال والجمال كلهم يزدحمون في تجمهر قذر تحت أسوار المدينة الثرية الموسرة ، ومن هناك يدخل ويخرج كل من يريد أن يعود الى الحقول داخل الدوار وفي كل الأماكن البربرية . ومن هناك أيضا تدخل كل المؤن . وكذلك فان الموريون والعرب يأتون الى المدينة من كل الجهات (331) . ومن هذه الجهة أيضا يقومون بالتنفيذ بحيث يعرضون المحكوم عليهم بالاعدام فوق الحلبة المقامة داخل التحصينات .

ومن هناك اكتشفوا على الشاطىء باتجاه رأس تافورة مزارات سيدي بتكا وسيدي عبد القادر الجيلاني المخفية تحت الأعشاب في " الجناح الاخضر " لمدينة الجزائر (332) لأن الريف من تلك الناحية أكثر جمالا وطرافة من جهة بوزريعة باتجاه المنحدرات الكئيبة (333). مع أن الضاحية الاخرى التي تقع تحت باب الواد متكررة أكثر بكثير . حيث يمر منها الناس المتدينون للوصول الى مسجد سيدي عبد الرحمن . انها جانب من المقبرة التي طالما عرفت تواجدا متكررا للنساء اللواتي يأتين اليها للتنزه أو لمقابلة بعضهن بعضا . وتوجد المقبرة اليهودية على يسارها على مخرج الباب

---

(331) نفس المصدر ص 420 ، في الملجة الافريقية

(332) ليسبيس : " مدينة الجزائر " ص 186.

(333) نفس المصدر السابق . ص 186.

ولا يوجد هناك مقبرة مسيحية . انه يجب انتظار عهد سيادة حسن باشا حتى يسمح للمسيحيين بشرط أن لا يقيموا حولها السياج ولا يحيطونها بأسوار ولا بخنادق ، كما يفعل المور المغاربة)والاتراك وحتى اليهود (334).

منذ زمن بعيد ارتفعت من هذه الناحية أفران الجير " الحجر الازرق " الذي يعرفه جيدا قلاعوا الحجارة والبنائين ، وبسبب وجوده بكثرة فقد أطلق في بعض الاحيان على مدينة الجزائر اسم " بلد الجير " (335). وبملاحظة نقوش القرن التاسع عشر حيث شاهدناها مهدمة ومخربة ، يمكننا أن نتصورها في عصر ازدهارها واشراقها بأنها صور ظلية مخروطية الشكل محاطة بسلالم دائرية مقصوصة برقة تنعكس صورتها على زرقة البحر لنظافتها (336).

ويمتد أمام باب الواد أيضا ساحة حيث تجري فيها الافراح والتسليات في أيام الاعياد (وخاصة العيد الصغير). وفي ذلك الوقت كانوا يمارسون ألعابا من كل الانواع مثل ألعاب الانكشاريين ، المراجيح ، لعبة صاري الحلوى (صاري يعلق في أعلاه حلوى ولا يمكن الحصول عليها الا بتسلق الصاري) . وعندما تم ختان ابن حسن أغا سنة 1541 ، أقام حفلات لهو وتسلية رائعة : وخلال ذلك شيد صاري حلوى في باب الواد مدهونا بشكل جيد بالشحم . وفي رأس الصاري علقت قطعة قماش ثمينة وصرة مملوءة بالذهب يكون من نصيب من يستطيع الوصول اليه (337).

---

(334) هاييدو : في المجلة الافريقية XLI ص 183.
(335) ليسبيس: " مدينة الجزائر " ص 54
(336) مدينة الجزائر في القرن التاسع عشر " المركز الثقافي الجزائري " في باريس . ص 62.
(337) مخطوطة المحكمة (MEHEKME) في المجلة الافريقية XXXV ص 181 .

الفحص (ريف المدينة) :

وهذه أيضا جهة الوادي الصغير المعمورة بالبيوت الصيفية الجميلة والفيلات البهية الممتعة بساحاتها المبلطة بالمرمر وصالاتها الملبسة بالصيني المزخرف (338). بحيث بدأ البرجوازيون في امتلاكها شيئا فشيئا . وبحلول فصل الصيف الجميل تزداد رغبة سكان هذه المدينة في قضاء عطلتهم بمنازلهم الصيفية هذه . فهم يغادرون المدينة مصحوبين بعائلاتهم ، وفي أثناء الطريق الى هذه البيوت يأخذون قسطا من الراحة تحت أشجار الزيتون القديمة على جانبي الطريق ويتمتعون بظلالها الوارفة (339).

في هذه المساكن الريفية التي تنتشر حول مدينة الجزائر ينسون مشاكل المدينة وهم جالسون في وسط الاشجار والازهار.

وتتمتع النساء بحرية أكثر في هذه لامنازل الريفية بعد الانزواء والعزلة التي تفرضها عليهن حياة المدينة (340) ، وهناك يرحبون ويحتفون بالقراصنة عند عودتهم من حملاتهم القرصانية في البحر.

ان ريف مدينة الجزائر يعتبر امتدادا ضروريا لمدينة بلا حدائق ومساكنها متراصة بعضها الى بعض داخل أسوارها .

اذا في هذا العصر ، عصر النهضة ، ظهرت أوروبا في ميدان الفن والثقافة ، وكذلك فاننا على أبواب ولادة نهضة جديدة ستقام على هذه الضفة من البحر المتوسط . ولادة عالم جريء مغامر، كثير التجوال ، الا أنه عالم منظم له قوانينه الثابتة .

---

(338) غزيل مارسييز بيفر : " تاريخ الجزائر " ص 184.
(339) علي خوجة : القصبة : البناء والتخطيط . ص 41.
(340) ماسيز " العمران الاسلامي الغربي " ص 445.

مدينة صغيرةمظلمة ، أصبحت عاصمة لمملكة بأكملها بدون ضعف (341) . فمن الرياس الاكثر غنى الى العبيد البائسين ، كل واحد فيهم ينافس الآخر لاعطاء الجزائر وجهها الجديد ، كما أن الفروق بين الناس الاسياد والعبيد قد اختفت مؤقتا من أجل تحقيق الهدف الوحيد وهو تأمين بناء الدولة .

وبارادة خير الدين وعزيمته خطت الامبراطورية التركية خطوات واسعة نحو الغرب واتسعت أرجاؤها بحيث صارت مدينة الجزائر تشكل قلقا كبيرا للاسبان ، هذا العملاق الآخر في ذلك العصر، حيث بدأ الاسبان بألبحث عن طريقة لتهديمه وانهاكه .

وقد وصفه الامبراطور شارل الخامس بأنه يشكل خطورة كبيرة على اسبانيا حيث جهّز حملة ضده سنة 1541 من أكبر الحملات البحرية .

لقد استطاع بانتصاره هذا أن يأخذ مجده وازدهاره محققا بذلك كل آماله وحتى نهاية ذلك العصر كان يعتبر قوة عظيمة في منطقة البحر الابيض المتوسط .

---

(341) فرناند برودويل : " البحر الابيض المتوسط " الجزء الثاني ص 195.

الفصل الرابع

الجزائر تحت خلافة حسن أغا

شغلت الجزائر التي ازدهرت ازدهارا باهرا فكر معظم العالم المسيحي .فمن بين الاشغال التي تمت في المدينة بناء رصيف جعل الميناء أكثر نشاطا وعملا وقد قاربت الاشغال في هذا الرصيف على الانتهاء ، وفي نفس الوقت قام خير الدين ببناء رصيف آخر في شرشال لأن هذه المدينة تحتوي على ميناء طبيعي حيث أراد خير الدين أن يجعله واسعا وعاليا جدا (342). لهذا السبب اذا سيكون الهجوم المقبل ضد سيادة هذه المدينة .

في جويلية سنة 1531 جهّز القائد الجنوي المشهور " اندريادوريا" حملة قوامها 20 سفينة شراعية حربية وتحمل على متنها 1500 جندي وقام بمهاجمة المدينة الصغيرة على حين غره . ولكن بعد وقت قصير من دخولها تفرقت الحملة العسكرية من أجل التفرغ للنهب والسلب مما سمح لسكان مدينة شرشال تمالك أنفسهم وانقضوا على الجنود المسيحيين المتفرقين والمحملين بالغنائم فجرحوا وقتلوا الكثير منهم، وفي النهاية أوقعوا فيهم الهزيمة (343). وبعد التفكير ، تم رصد هذه العملية لتبادل الاسرى . فالذين تم اطلاق سراحهم من جيش دوريا حلوا مكان الذين هربوا واختفوا .
وهذه هي أيضا هزيمة أخرى (344) للمسيحيين ، ونصر للجزائريين .

---

(342) هايبدو : " تاريخ ملوك الجزائر " ص 44
(343) نفس المصدر السابق ص 44
(344) مرسييه : " تاريخ افريقيا الشمالية " الجزء الثالث ص 33. ساندر رونج ودونيس " تأسيس حكومة الجزائر " الجزء الاول . ص (245) .

سفر خير الدين :

علمنا أن سليمان أراد أن يتقابل شخصيا مع البطل الذي وقف في وجه عدوه الاسباني .

وفي سنة 1533 دعاه الى استانبول وكان جلالة شارل الخامس قد عرف بالتأكيد بمغادرة بربا روس الجزائر ، ولكنه كان يجهل دون شك بأنه متجه الى تركيا بأمر واضح من السلطان (345) .

ولا نفهم جيدا لماذا جهز هايددو (ومن بعده غرامونت) الحملة على تونس الذي سيتبعها قبل الاعتراف الرسمي بالسلطان. وقد كتب في الواقع : " بأنه عاد الى استانبول ليطلب من السلطان مساعدته . لكن الاتراك والمرتدين عن الدين قالوا بأنه يكتب للسيد العظيم عما حدث ، ويرجوه أن يبعث له أناس يحمون مدينة الجزائر أثناء وجوده في تونس (346). والحالة هذه فان الوثائق الاسبانية في ذلك العصر والغزوات قد أثبتت العكس ، حيث ذكرت بأنه سافر في ذلك الوقت الى تركيا ، وهناك تم الضغط عليه من قبل سليمان الذي جهز حملة ضد تونس ، وهذا أكثر بكثير من نظام الاشياء : فعدا عن كون خير الدين باشا الجزائر ، الا أنه لم يكن لديه أي عمل بعد في أجهزة الدولة العثمانية العظيمة . فهو ليس الا موظف رسمي يحمل لقب بايلر باي الجزائر والذي يستطيع أن يقود عملية مهمة جدا ، وهي تسليم تونس للاتراك .

في سنة 1533 غادر خير الدين الجزائر تاركا المدينة تحت حماية رجاله الموثوق بهم الا أن أحد المرتدين المعروف باسم

---

(345) رسالة القائد أوشو ديرسيلا الى شارل الخامس . أرشيف سيمونكاس 1533 في النشرة الافريقية XIX ص 271.

(346) هايدو : " تاريخ الملوك " ص 52 .

حسن أغا والذي سنتعرف على شخصيته البارزة فيمابعد حيث شارك في القيادة العامة لميليشيا الحاج باشا والقائد علي ساردو حيث سيرأس حسن أغا من الآن فصاعدا مدينة الجزائر .

وفي 16 أفريل سنة 1534 أحدث ضجة كبيرة في استانبول (347) بحراسة كل القراصنة الموالين له ومتبوعا بالسفن التي استولى عليها في الطريق . لقد غادر الجزائر بعشرة سفن شراعية حربية وعشرة فيوستات (FUSTES) ووصل الى استانبول ومعه 26 سفينة (348) .

وطلب الوزير الكبير ابراهيم الذي اتخذ من حلب مقرا له من السلطان أن يبعث له خير الدين حتى يمنحه منصب بيلر باي و أن يزوده بالتعليمات والتوجيهات اللازمة للنجاح في الحملة القادمة ورجع القرصان الذي لا يكل ولا يتعب راكبا حصانه ومتبوعا بقادته الى حارة ابراهيم الذي استقبله باحتفال بهيج وقلده لقب بيلر باي الجزائر وبهذا اللقب يحق له أن يتصدر المجلس الذي يضم كل البيلر بايات الآخرين (349) .ووصل الى هذه المدينة كتاب من السلطان يقضي باعطاء قفطان وثلاثة ذيول لخير الدين ويأمر رئيس الوزراء بتعيين الباي في منصب الباشا .

ولهذا فقد استدعى رئيس الوزراء الديوان العام ليخبره بأن خير الدين ارتدى رداء الشرف ووضع على رأسه عمامة بمناسبة تعيينه في منصب الباشا (350)، وأصبحت مدينة الجزائر احدى عمالات(ولايات)

---

(347) أندريه كلوت : سليمان العظيم . ص 142.

(348) القائد أوشوا ديرسيلا : أرشيف سيمونكاس 1533 في النشرة الافريقية XIX ص 271 .

(349) هامار : " تاريخ الامبراطورية العثمانية " الجزء الخامس ص 243 .

(350) ساندر ودنيس : " تأسيس حكومة الجزائر" الجزء الاول ص 34.

الامبراطورية العثمانية . وقائدها الملقب بأمير الاسطول البحري الكبير ، يستطيع أن يقول رأيه عن العمليات التي حاول القيام بها في المغرب ، فقد شرح اذا خطته الى السيد العظيم والتي تعتمد على تضييق الخناق على الاسبان في عقر دارهم بعد طردهم من افريقيا، ولكن كان من الضروري قبل كل شيء طرد ورثة السلطة الحفصية الضعيفة لأننا نعرف أنهم على استعداد للتعامل مع المسيحيين في حالة ما اذا تم تهديدهم (351). ويوجد الامير الحفصي رشيد في تركيا من أجل الحصول على حكم ضد ملك تونس مولاي حسن ، وتقرر استخدام هذا الملك كمبرر للقيام بالغزوة وبالتالي فقد أطلقت الاشاعات في هذه الدول ، ولكن في اللحظة التي صعد فيها على الاسطول الذي ظن بأنه سينقله ألقى القبض عليه ووضع في السجن حتى مات (352)). ووصل باربا روس أمام تونس وأقنع التونسيون بأنه جاء ليخلصهم من ملك أتعبهم كثيرا من أجل أن يأتي برجل شرعي يحل مكانه . واستولى بكل سهولة على المدينة وكان سيد الموقف حيث صرخ قائلا : " أنه لا يوجد ملك آخر على تونس غير سليمان (353) .وقاوم التونسيون المخدوعون باسترخاء ومارسوا التهديد والمراوغات،في نفس الوقت حيث استطاع خير الدين أن يستغل هذه الوضعية .

لكن بالنسبة الى شارل الخامس كان التهديد غير محتمل مع مغرب تحت سلطة الاتراك ، هذا المظهر الجديد هو شبح اعادة فتح اسبانيا الذي أضاف كزيميني (XIMINIE)، واذا لم يتدخل شارل الخامس بسرعة فان دولة اسلامية كبيرة ستتكون في شمال افريقيا،

---

(351) ميرسيي : " تاريخ افريقيا " الجزء الثالث . ص 34.

(352) فيرود : " دراسة تاريخية عن عمالة قسنطينة في المجلة الافريقية XVIII ص 135.

(353) نفس المصدر السابق .

وبدعم من الاتراك ستشكل تهديدا عظيما لاسبانيا (354). كما أن الامبراطور نفسه كان على رأس الحملة : وقد تواجد أمام تونس 412 سفينة كبيرة و 27.000 رجل ، انه بالنسبة له عدد ضخم في منطقة سكانية منقسمة بسبب الحروب الداخلية .
وسقطت المدينة في يد الاسبان في شهر جويلية سنة 1535.

وحسب تكهن المقاتلين فان خير الدين قد أرسل لنجدة مدينة الجزائر ، وكان قد أمن خطوطه الخلفية " وذلك بأن تر ، 15 سفينة حربية راسية في ميناء عنابة بينما استقر الضابط حسن أغافي قسنطينة . وبفضل هذه الاحتياطات الحكيمة بعد الهزيمة استطاع ضمّ الجزائر بسرعة حيث بدأ من الطبيعي أن يبقى هناك مدة من الوقت ليعوض عن نكباته (355) .وكان هدفه الاول هو اعادة تكوين الاسطول .
ان مستودع الاسلحة كما ترينا اياه الحفر القديمة لا يوجد بعد لأنه تم بناءه في سنة 1573 من قبل عرب باشا ، ولكن يوجد على الميناء ورشة هامة لاصلاح السفن .

ومن خلال هذه الورشة استطاع الجواسيس الاسبان معرفة عدد المدافع في المدينة حيث استطاعوا أن يحصوا 1533 كما استطاعوا حتى معرفة اسم مستودع الاسلحة الذي يقع (بين المسجد ومصنع الاسلحة)، يوجد 21 قطعة مدفعية منها 6 مدافع صغيرة مصنوعة من الحديد (356) .وفي نهاية سنة 1535 تم اعادة بناء الاسطول واستطاع خير الدين أن يعود الى البحر على رأس 32 سفينة (357) مدفوعا بقوته الجديدة (أليس هو كابيودان باشا ؟) ، انه من الآن

---

(354) أندري كلوت : " سليمان العظيم " ص 143.
(355) ميرسيي : " تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثالث . ص 42
(356) أرشيف سيمونكاس (1533) في المجلة الافريقية XIX ص 266.
(357) ميرسيي OP.CIT الجزء الثالث ص 43.

فصاعدا سيسود على البحر المتوسط . انهم لم يستطيعوا أن يؤذوه عندما كان وحيدا والآن وهو يقود أسطول السلطان كما أنه مضمون من قبله (358).

وعاد مرة أخرى الى مدينة الجزائر بعد غارة على ماهون (MAHONE) ثم تفرغ نهائيا لمواصلة حرفته المدهشة لمجد وعزة الامبراطورية العثمانية في البحر المتوسط .

حسن أغا :

ان الخليفة الذي جاء بعد خير الدين (359) هو رجل من اختياره لأنه هو نفسه بقي في منصب بيلر باي الجزائر (360) .

ولد حسن أغا في سردينيا وقبض عليه باربا روس عندما كان طفلا في حملات القرصنة على هذه الجزيرة ، وقد أصبح حسن بسرعة الشخص المفضل عنده ثم جعله حرا ، وقد حفظ حسن أغا كل الافضال والجمائل لسيده ، حيث أوكل اليه عدة مناصب قيادية عسكرية نظرا لشجاعته رغم أنه خصي ..(361) . وهو الذي ولاه على قسنطينة للحفاظ على سلطته ونفوذه وذلك أثناء حملته على تونس (362) وقد رجع الى مدينة الجزائر في نهاية 1535 لاستعادة حكومة المدينة وذلك بعد سفر رئيسه (363) .

وكان متعقلا في حكمه التام ، وكان كريما متسامحا متفرغا بالكامل لمصلحة المملكة ومن أجل رفاهية ورخاء الناس .

---

(358) أرشيف سيمونكاس ، 14 ، 15 أفريل 1535 في المجلة الافريقية XIX ص 352.

(359) كولان : وثائق عربية مسجلة ، ص 20.

(360) ساندر رانج ودنيس : " دولة وصاية الجزائر" الجزء الثاني ص 51.

(361)

(362)

(363) أرشيف سيمونكاس في المجلة الافريقية XXI ص 25.

فنشر العدل والانصاف ، كما أحب الدراسة والعلم ، حمى الدين وأخيرا فان قوته وشجاعته جعلته بشكل عام محبوبا ومحترما (364).

وقد حكم مدينة الجزائر لمدة ست سنوات دون تسجيل أي حادث وأعاد لها العدل ... ولم تكن تتمتع بالعدل هذا في زمن أي باشا قبله (365) ، كما أننا لم نسجل أي نقد أو انحراف في عصره . ومن هنا اذا جاء اتهامه من قبل مؤرخي القرن التاسع عشر، أمثال بيربروغر (366) ومن بعده غرامونت وميرسيي (368). وحسب هؤلاء فان هذا الرجل الشجاع والنزيه قد تواطأ سرا مع الاسبان لتسليمهم مدينة الجزائر .

وبعد محادثات أجراها مع الكونت دالكودت حاكم مدينة وهران وعده حسن أغا بتسليم المدينة وفي حالة اخلاله بهذا التعهد فان الامبراطور سيهاجمه بقوات معتبرة لا يستطيع مقاومتها (369). وهؤلاء المؤلفون لم يذكروا مصدر معلوماتهم ، ومن الصعب علينا تفنيدها بالكامل . صحيح أننا وجدنا في رسائل الاسبان (في سنة 1542 بعد هجوم شارل الخامس) (370) حملة مبهمة يمكنها أن تترك مجال أكثر للمداولة والمفاوضة ، الموريون (المغاربة) هم الذين حاولوا اغراء دون ألونسو أكثر من حوالي سنة في موضوع المحادثات من قبل حسن أغا . وهذه الرسالة كانت موقعة بيد الامبراطور : وقد

---

(364) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية لمدينة الجزائر" الجزء 2 . ص 51 .

(365) هاييدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 62 .

(366) بير بروغر : في المجلة الافريقية IX ص 379.

(367) غرامونت :" تاريخ مدينة الجزائر" ص 57 .

(368) ميرسيي : " تاريخ افريقيا " الجزء الثالث ص 57 .

(369) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 58 .

أدرك دون ألونسو ما يريده الموريون وما ينبهون اليه ولا شيء هنـــاك يسمح للقول بأن الرسالة تتعلق بتسليم المدينة . وعرفنا فيما بعـــد بأنها مشكلة صغيرة : تتعلق باتفاقيات تجارية ومبادلـة أســرى . ومهما يكن فان المواطنين والمعاصرين لحسن أغا لم يذيعوا مثل هـذه الشكوك . بل على العكس : فمن هاييدو الاسباني الـى المنافقيـــن لخير الدين في الغزوات ، كل منهم يمدح ويمجد ويعظم خصال الخليفة . وعلى أية حال فان سلوكـه ليس سلوك رجل مستعد لتسليم مدينته ...

ولم تكن الوضعية التي تركه عليها خير الدين عنـــد مـغادرتـه مريحة : وشيئا فشيئا ظهرت اشاعة تقول : أن شارل الخامس لـــم يكتفي بتونس وأن حملته المقبلة ستكون ضد مدينة الجزائر ، حيـــث هبت رياح الرعب والهلع : وبدأ السكان يشعرون بالقلـق الشديـد وهرب من المدينة كل من استطاع الهرب من الإتراك .وعمل حسن أغـا كل ما في وسعه لايقاف عملية الفرار هذه ولكنه لم يوفق فـي ذلـك ((370) ، كما أنه استعد استعدادا تاما للهجوم المنتظر ، وتم ربـط قلعة البنيون القديمة المحصّنة بالارض ، فثبتوا المدافع على الاسـوار البسيطة المثقوبة بفتحات ضيقة وتخبىء وراءها مدافع من ذات العيار الضعيـف (371) .

كما أعادوا بناء الاسوار القديمة التي انهارت من ثلاث مواضـع مختلفة على مساحة واسعة ومعتبرة وذلك بعد الامطار الغزيرة في فصـل الشتاء ، وقد أصلحها السكان بسرعة كبيرة الا أن العمل لـم يتقـدم كثيرا بسبب نقص العمال الجيدين ، والموضوع هو تجنيد 1500 عربـي من الريف لانهاء هذا العمل (372) .

---

(370) أرشيف سيمونكاس 1542 في المجلة الافريقية IX ص 383 .
(371) = = مارس 1536 في المجلة الافريقية ص 85.
(372) ديلفوكس في المجلة الافريقية XXI ص 351.

ودائما بفضل الجواسيس الاسبان الذين كما يبدو بأنهم لم يتوقفوا لحظة واحدة عن مراقبة مدينة الجزائر ، استطعنا أن نكون وصفا دقيقا عن تسليح هذه المدينة :

- داخل القصر الموجود في الاعلى (374) يوجد : 3 مدافع حجرية (منجنيقات) و 5 أنصاف مدافع أو بما يسمى صقور .
- يوجد مدفعين وصقرين (نصفي مدفع) فوق القلعة الكبيرة بالقرب من مدخل باب الواد (375) .
- في زاوية مدخل باب الواد من جهة البحر يوجد 4 مدافع .
- من آخر نقطة حتى المدخل في مواجهة الجزيرة يوجد : 17 قطعة مدفعية .
- بين باب الجزيرة والجامع الكبير يوجد : 10 قطع من البرونز و 4 قطع مدفعية من الحديد وواحدة من هذه الاخيرة المسماة حفنية (مدفع قديم).
- بين الجامع ومستودع الاسلحة يوجد 21 قطعة منها 6 مدافع صغيرة من الحديد .
- بين مستودع الاسلحة ومدخل باب عزون يوجد 8 قطع وعلى هذا المدخل نفسه يوجد مدفعين ناريين صغيرين (376).

---

(374) القصبة الحقيقية

(375) بيربروغر : (جيرونيمو .. ص 58) .

(376) أرشيف سيمونكاس 1533 في المجلة الافريقية XIX ص 266.

ومن أجل أن يبرهن على ثقته واعادة الهدوء والامن الى الأذهان اغتنم حسن أغا مناسبة ختانة ابنه ليقيم الاعياد والافراح حتى أصبحت مثلا لأحسن الافراح والاعياد في العالم ..(377) .

وبعد ذلك نظّم كل الرجال الأصحاء وقام بتوزيعهم على مراكزهم في كل حارة من حارات المدينة وذلك بمساعدة شيخ المدينة، كما قطع كل الاشجار المحيطة بالمدينة مبتدءا بأشجار حديقته الخاصة .(378)

وبالتوازي مع هذا العمل بعث نجدة الى ملك تلمسان المضغوط عليه من قبل الاسبان للتعامل معهم . حيث كتب حاكم وهران الكونت الكودت رسالة الى شارل الخامس يعلمه فيها بأن ملك تلمسان قد بعث رسالة الى مدينة الجزائر للتشاور مع حسن أغا ، وطلب منه بأن يبعث له ألف جندي تركي وثلاثين أو أربعين مدفعية (379). وفي الواقع فقد أحسن خير الدين اختيار خليفته .

ولكن ما هو عدد الجيوش التي جهزها ؟ الشهادات والأنباء متذبذبة (380) حيث تذكر بين 3000 و 6000 رجل ، وهذا العدد يتضمن كل من هو قادر على حمل السلاح ولكنهم ليسوا محاربين أقوياء أشداء . وهذا جزء قليل من الأشياء التي حضّرها حسن أغا لمجابهة الحملة .

ولم تكن الاشاعات كاذبة : فقد قرر شارل الخامس التفرغ لمدينة الجزائر بعد أن نجح في حملته على تونس ، وكان تدمير مدينة الجزائر هو الهدف الاول الاول الذي وضعه الابن الاصغر لفرديناندالكاثوليكي ، ابن فيليب الجميل وجون الماجن (LE FOLE) (381).

(377) مخطوطة المحكمة في المجلة الافريقية XXXV ص 181.

(378) نفس المصدر السابق .

(379) رسالة الكونت الكوديت الى شارل الخامس . أو 1536 في المجلة الافريقية XXI ص 204.

(380) ملحق رقم (2) .

(381) جوريان دو لاغرافييي : (قراصنة البربر) ص 27 .

وفي سنة 1541 جمع أكبر كمية من السلاح في القرن السادس عشر في مايوركا (382) وبعث كل أشراف ونبلاء اسبانيا وألمانيا وايطاليا متطوعين لهذه الحملة (383).

كما أن مجموعة الفرسان كانت ملازمة للحملة العسكرية ، وشارك في مساعدتهم على تحضير هذه الحملة القائد المدهش في ذلك العصر " أندريا دوريا قائد الحملة ، كما ساعدهم في ذلك هرناندو كورتز فاتح المكسيك ، مصحوبا بو لديه الاثنين ... اضافة الى مدينة الجزائر فهناك قوة العثمانيين التي يجب محاربتها في آخر منطقة نفوذ غربية .'

ورغم أن هذه التحضيرات قد تأخرت والفصل متقدم جدا للمباشرة بالحملة البحرية .فان مستشاري شارل الخامس كان رأيهم تأجيل الحملة هذه .

ولا يعرف أبدا لماذا استمر الامبراطور في محاولة الاغراء ، رغم كل الآراء الغير ملائمة لاعطاء تفسير في الرأي والاعتذار عن الخيبة التي مني بها والتي عوقب عليها والتي تكلم عنها مؤلفوا القرن التاسع عشر حيث قالوا : بأنه اتفاق حدث مع الآعداء .

وتحت سماء مملوءة بالتهديدات التي تحمل عدة هزات منذ مغادرته في أكتوبر 1541 ، انطلق الاسطول المسيحي ووصل الى مشارف سواحل مدينة الجزائر في نهاية الشهر .

---

(382) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 58 .
(383) = = = = ص 58 .

الفصل الخامس

هجوم شارل الخامس على مدينة الجزائر

(أكتوبر 1541)

هذه الحملة التي كانت نتيجتها فاصلة بالنسبة لمستقبل مدينة الجزائر ، كانت قد رويت عدة مرات .

المصدر العربي الوحيد والرئيسي هو مخطوطة محكمة (MAHEKME) والتي غالبا ما تهمل قصص الاوروبيين المشاركين في المعركة أمثال : (فيليجينون ، مارمول ، ساندوفال ..) حيث نستطيع أن نكتب الأحداث ثانية دون الخوف من الوقوع في الخطأ الكثير .

الاربعاء 19 أكتوبر 1541 اعلم الجنود الذين يراقبون مرتفعات بوزريعة حسن أغا بأن السفن الحربية تتواجد في البحر بأعداد كبيرة جدا بحيث لا نستطيع عدها ويوجد من بينها سفن تشبه الجبال في علوها (385) .

ويمكن تصور الرعب والهلع الذى استولى على المدنيين نتيجة لهذا الخبر ، وأهمية الأرمادا ، هي أننا اذا نظرنا اليها من الجوانب فانها لا تتشابه أبدا مع تلك التي كانت في الحملات السابقة ...

ولكن الخليفة لم يترك مواطنيه يستسلمون لليأس . فقد ركب حصانه وطاف في المدينة الواهنة العزيمة (386) يشحذ هممهم

---

(385) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية في مدينة الجزائر " الجزء الثاني . ص 54

(386) هابيدو : " تاريخ ملوك مدينة الجزائر " ص 62.

ويشجعهم مذكرا اياهم بوصول بارباروس قريبا (387) .

ثم جمع كل الرجال الأصحاء ووزع الجيوش المكونة من السكان على الاسوار وفي المواقع والمعاقل المحصنة . ولم يحدث في أي حال من الاحوال أن ملكا أظهر شجاعة أكثر من شجاعته وخبرته وحنكته التي يجب اظهارها في هذه المناسبة (388) .

وهب سكان المدينة متشجعين بهدوئه وضماناته وأخذ كل واحد موقعه وامتلأت الاسوار بالرجال المسلحين بالبنادق والسيوف،وبالرماح والحراب، والاقواس وكذلك بالرايات الحربية من كل الألوان وهي ترفرف تحت السماء في فصل الخريف .

وتمركز الضباط والملازمون التابعين لحسن أغا في المواقع الرئيسية :

- حاج مامي يدافع عن باب عزون .
- القائد يوسف بمساعدة ثلاثة ضباط هم : سافير ، أرسلان و رمضان مكلفون بباب الواد .
- مجموعة من ضباط البحرية تحت قيادة كوتسوك علي وهيديرا خيدر القائد العام للبحرية يحرسون باب البحرية .
- حسن أغا نفسه يحتفظ بالقلعة القريبة من باب الواد ، بحيث يمكن للمدافع أن تضرب في البر والبحر في نفس الوقت .
- وأخيرا القائد حسن يدافع عن الساحة الواقعة بين القلعة والقصبة (389) .
- وطوال اليوم التالي 20 أكتوبر كان المحاصرون المجتمعون فوق أسوارهم يشاهدون سفينة الارمادا الضخمة وهي تقطع الخليج ببطء متجهة الى تامونڤوست ، حيث أرست هناك حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر .

---

(388) هابيدو : " تاريخ ملوك الجزائر" ص 62 .

(389) مخطوطة المحكمة (MAHEKME) في المجلة الافريقية العدد XXXV ص 179.

وعلى ظهر الباخرة الامبراطورية يمكننا أن نميز من بين الجنود النظاميين والمدافع ، عددا كبيرا من النساء الاسبانيات جئن هنا وكأنهم يأمرن بجائزة للفائز في التصفيات (390). وفجأة خلال عملية التحرك هذه سقطت مقصورة من الباخرة في البحر. هذه الاشارة تم تفسيرها فيمابعد من طرف سكان مدينة الجزائر بأنها فأل حسن (بشير) ، حيث أعادت الثقة الى نفوسهم وعرفوا بأنهم سينتصرون على عدوهم (391).

ومن جهة أخرى فان الجو كان غائما والبحر هائجا وأمواجه متلاطمة ، وخلال يومين فان المخيّمين كان يمكن رؤيتهم من جهة أو أخرى من الخليج الصغير .

وأرسل الجزائريون قاربين للمراقبة : ولكن تم القاء القبض على أحدهما ولاذ الآخر بالفرار .

ان المرتفعات التي تسيطر على الخليج مغطاة بالفرسان الذين جاؤا من سهل المتيجة ومن الريف والضواحي المحيطة بالمدنية والذين ينتظرون بقلق مثلهم مثل سكان المدينة القرار الذي سيتخذه العدو .

وكان شارل الخامس يبحث عن مكان أو موقع مناسب للنزول فيه . وجاء قارب يسير بمحاذات الساحل لمعرفة النقطة الاكثر فائدة من أجل ارساء الباخرة وتهيئة السلاح (392) ، حيث وجد المكان المناسب بالقرب من مصب واد الحراش ، وتوجهت الأرمادا الى ذلك المكان في فترة ما بعد الظهر من يوم الأحد الموافق لـ 23 أكتوبر حتى يباشر بالارساء قبل غروب الشمس .

---

(390) هامار: " تاريخ الامبراطورية العثمانية" الجزء الخامس ص 346 .

(391) مخطوطة المحكمة .

(392) ساندر رانجودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية في مدينة الجزائر " الجزء الثاني . ص 276 .

ونزل الفرسان من كل مرتفعات لساحل على الشاطئ وحاولوا اعتراض عملية تحريك الباخرة وارسائها. لكن بنادقهم وسهامهم كانت غير كافية ضد الكرات الصغيرة التي تطلقها مدافع السفن، وتحتم عليها الانسحاب فورا تاركين هذه الحملة العسكرية تنزل على اليابسة، وبدأت تزحف ببطء نحو المدينة مع حلول الظلام، وتقدم الجيش المسيحي مسافة ألف قدم (393) وخيّموا في مكان يسمّى الحامّة.

واتفق المؤرخون الأوروبيون على اظهار حزنهم ورثائهم للتهاون وعدم اكتراث الادارة الاسبانية التي لم تزود الجيش بالخيم والملابس الدافئة (394). ويحدث التخييم في حالات طبيعية مختصرة بينما سارع الامبراطور بارسال رسول لحسن أغا يعرض عليه تبديل المدينة مقابل جائزة كبيرة جدا له وللأتراك (395)، وأجاب الخليفة بكبرياء وأنفة بأن الأخذ بنصائح عدوّه حماقة كبرى، ويتمنى بارادة الله عزّ وجل أن يكسبه هذا العمل المكانة المرموقة والشهرة الآبدية (396).

واذا كان شارل الخامس قد جهز حملته معتمدا على أمله في الخيانة فهذا هو الآن قد أخبر بذلك..

---

(393) فيليجدنون رواها ساندر رانج، الجزء الثاني. ص 262.

(394) هامار: "تاريخ الامبراطورية العثمانية" الجزء الرابع. ص 347 ـ رافونت في المجلة الافريقية XXXIII 1939 ص 308 ـ فليجينون رواها ساندر رونج: "تأسيس الوصاية في مدينة الجزائر" الجزء الثاني ـ ص 288.

(395) هاييدو: "تاريخ ملوك الجزائر" ص 62 وساندر رانج ـ الجزء الثاني. ص 58.

(396) أنظر (395).

الليلة حالة الظلام ، والسماء مغطاة بالسحب والغيوم .

خرج سكان مدينة الجزائر بقيادة حاج باشا مستغلين الظلام الدامس واقتربوا من مخيم الأعداء . وهاجموه حيث نشر هجومهم هذا البلبلة والاضطراب لأن المهاجمون لم يكونوا ينتظرون الانتقام السريع من عدوهم .

واستيقظ الامبراطور بهلع وهو يرتجف وقال متعجبا . هل هذا ما كنتم قد أخبرتموني به ؟ بأن الجزائريين لا يتحملون الوقوف أمام هجماتنا ؟ (397) . وقد انسحب القائد بعد هذه المناوشات بدون خسارة .

بدأ المسيحيون بالزحف يوم الاثنين 24 أكتوبر . وتقدم الجيش الضخم نحو المدينة ، بحيث كان يبدو لأعين السكان وكأنه كتل من النمل الاسود يملأ السهل (398) .

وسار الاسبان الى الأمام ، وكان الامبراطوريشرفه ونبله وارادته القوية يقود الحملة العسكرية التي تتكون من الألمان والايطاليون والفرسان الذين يشكلون المؤخرة ، وكان الجيش المسيحي محاطا بجحافل العرب الذين يقومون بمضايقتهم من كل الجهات (399).

ولفهم خطة الجيش الامبراطوري ، يجب محاولة تصور طوبوغرافيا ضواحي مدينة الجزائر قبل أن تغيّر البناءات التي نعرفها من شكل الطبيعة .

ويتشعب خطين من المرتفعات الرئيسية لهضبة الأبيار ـ الخط الاول ينفصل في أعلى واد بير طرارية وينخفض 240 متر تقريبا حيث صخور البحر في رأس سيدي الكتّاني مكونة من بروزين أساسيين وسطحيتين هما حصن الامبراطور (كوديات الزابون) وينخفض 216 متر

(397) مخطوطات محكمة (MEHEKME) .
(398) نفس المصدر
(399) غرامونت : " تاريخ مدينة الجزائر " ص 59 .

والآخر هو الذي يحمل القصبة القديمة للمدينة وينخفض 120 متـــر. (400) .

فمدينة الجزائر بنيت في القرن السادس عشر على نتوء صخـــري . ويحيط المدينة من الجهتين مجموعة من الوديان التي تتجه نحو أعلـى التـل . وسيقيمون المواقع المعادية ، الايطاليون والفرســـــان المالطيون يحرسون الشاطىء في رأس تافورا . وتسلق الاسبـــــان الجبل لتطويق المدينة على مقربة من الوادي ، أين يجري الـــــواد الصغير (401). بينما يقوم الامبراطور مع الجيش بنصب خيمتـــه على هضبة مرتفعة (في كوديات الزابون) التي تسيطر على المدينـة بالقرب من مسجد صغير سمي سيدي يعقوب .

وفي نفس الوقت فان كل السفن الشراعية الحربيـــة والبواخـــر المسلحة ببعض المدافع تشكل خطا دفاعيا أمام الجزء الجنـوبـــي من المدينة وتبدأ في الحال باطلاق النار بحيث ترد عليها المدفعية دون أدنى خطأ من جهة أو أخرى (402) .

كـل شـيء جاهـز لشـن الهجـوم في اليـوم التالـي ...

ولكن خلال الليل من 24 ـ 25 انفجرت العاصفة التي كانت كامنـــة منذ عدة أيام . وكل ما أمكنهم معرفته هو أن الامطار الطوفانية التـي سقطت أحيانا على مدينة الجزائر . ونفهم بسهولة ما عانـــى منـــه الجنود المهاجمون فـورا .

وكان الجنود قد نزلوا دون أن يأخذوا حذرهم بأي نوع من الوقاية فلم يكن لديهم معاطف تحميهم من البرد ولاخيم يلجأون اليها هربـا

---

(400) ليبيس : مدية الجزائر . ص 41 .

(401) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية على مدينـة الجزائر " الجزء الثاني . ص 284 .

(402) نفس المصدر السابق . ص 295.

من الامطار المتساقطة من السماء ... وبسبب القلق والعذاب الذي انتابهم من العاصفة فقد شعروا بأنهم فقدوا شجاعتهم وقوتهم في نفس الوقت (404). وارتفعت أمواج البحر بشكل لا يصدق . ففي الخليج الصغير تقطعت مراسي السفن والبواخر . ودفعت هذه العاصفة الهوجاء الاسطول نحو الاتجاه المعاكس للشاطىء حيث تشققت السفن وغارت الى الاعماق جارّة معها الرجال والأدوات .

أما فيمايخص الجنود المحاصرين فقد استغلوا الفرصة التي نزلت عليهم من السماء ... ليخرجوا من الحصار المضروب عليهم مستغلين بذلك نزول الامطار ، حيث قاموا بالانقضاض على الجناح الايطالي والفرسان المالطيين في مواقعهم ومعاقلهم . وساعدهم في هذا الهجوم طبيعة الأرض ، وكذلك معرفتهم للأماكن وأسلحتهم التي يستعملونها وهي الاسهم والنبال والاقواس والتي كانت أكثر فعالية تحت هذه العاصفة من البارود والرصاص ، وخاصة طريقتم في القتال التي تعتمد على السرعة والخفة ، هاربين أمامنا وفي بعض الأحيان يقفون ليرمونا من بعيد بالاسهم والحجارة : ويقول فيليجينون أن هذا النوع من القتال كان جديدا علينا (404).

وقام كذلك الجنود المشاة باستفزاز العدو واستدراجه الى حيث أرادوا : وباستعمال هذا النوع من القتال الذي يعتمد على الخديعة فان جنودنا طاردوا العدو بتهور وبلا حذر خارج الصفوف حتى أسفل أسوار المدينة (405). وتحصّن الجزائريون داخل الابواب ،بينما جهّز المدافعون عن مدينة الجزائر الاسوار بالاسلحة وقذفوا كل ما لديهم من نبال وأسهم وحجارة على الايطاليين الذين تملكهم الرعب والهلع

---

(404) فيليجينون بواسطة ساندر رانج في " تأسيس دولة الوصاية في الجزائر " الجزء الثاني . ص 290 .

(405) نفس المصدر السابق . ص 291 .

فتفرقوا وهربوا (406). قال باندیني ممثل كوسم دو ميديسيس (COSM DE MEDECIS) في الحملة على مدينة الجزائر بقسوة وصرامة : " في 25 أكتوبر أساء كل الناس القيام بواجبهم لكن الايطاليين كانوا أسوأ الجميع ...(407).
صحيح أن الامطار لم تتوقف عن الهطول والرياح شديدة وحماسة الجنود المهاجمين قد نقصت تدريجيا مع نقصان المقاومة .

ان الفرسان المالطيين مازالوا في وضعية حسنة وأقوياء ، لكن حسن أغا كان راكبا على ظهر حصانه محاطا بجنده حيث أسرع الى اجبار الفرسان على التراجع ولاحقهم حتى الاسوار (408) ودخلوا في مضيق (409) ، حيث هناك استطاع حسن أغا أن يذبح عددا كبيرا منهم . وهذا مما اضطر الامبراطور لترك موقعه الموجود على المرتفعات من أجل نجدة هذا الجناح من جيشه واستطاع أن يدحر سكان مدينة الجزائر حتى مدخل باب عزون .

وفي خلال هذا الوقت كان جناحه الايسر الذي يتألف من الاسبانيين مشغولا من جهة الساحل لايقاف تقدم العرب الذين هاجموهم من جهة الغرب .

غير أن العاصفة تضاعفت والاسطول الموجود في الخليج الصغير يعاني من أزمة كبيرة ، حيث أن 150 سفينة من أحجام مختلفة قد تحطمت على الشاطىء أو غرقت على بعد قليل منه والتي تظهر لهم من خلال رؤوس صواريها التي لم تختفي تماما تحت الماء (410) .

---

(406) رافونت في المجلة الافريقية XXXIII L 1939 ص 304
(407) نفس المصدر السابق . ص (309) .
(408) هايدو : " تاريخ الملوك " ص 64 .
(409) بالقرب من قصر العدالة الخالي .
(410) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس دولة الوصاية على مدينة الجزائر " الجزء الثاني . ص 305.

كل البحارة الذين سلموا من الغرق قد تم أسرهم أو قتلهم من قبل العرب الذين كانوا يركبون خيولهم ويطوفون بها على طول الشاطىء. وبالمقابل فان الاسرى المسلمين الذين يعملون على ظهر السفينة الشراعية الحربية المسيحية ، قد وجدوا الفرصة المناسبة للفرار والتخلص من الاسر ،وفقدت المدفعية الكبيرة وكل الأجهزة والعتاد لأن القوارب التي حملت بالعتاد والمؤن والذخيرة قد غرقت وفي نفس الوقت اختفت ذخيرة ومؤونة الجيش مع السفن التي غرقت لأنه حتى ذلك الحين لم يتم تنزيل وافراغ ما يكفي لقوت يومين أو ثلاثة أيام فقط .

ومن شدة المعركة فان الجيوش الامبراطورية خافت وارتعدت وكانت منهوكة ومصابة بالجنون بسبب غرقّ سفنهم ، حيث رأينا فجأة السفن التي بقيت سليمة ترفع أشرعتها وتلوذ بالهرب ، هذا العمل أقلق القائد الاسباني " اندريا دوريا " وجعله يهتم بتأمين الحماية للامبراطور وانقاذ ما يمكن ادراكه وخاصة المقاتلين الذين انهارت نفسياتهم بالكامل .

لقد انتهى اليوم تحت الامطار الغزيرة التي تنهمر من السماء بينما كان كل مخيم يحصي خسائره والتي كانت ثقيلة جدا . فعاد الأمل الكبير من جديد الى قلوب المحاصرين .

وفي اليوم التالي الأربعاء 26 وصلت رسالة من القائد أدريا داريا الى الامبراطور يشرح له فيها عن العمل الذي قام به والسهر واليقظة لانقاذ الجيش قائلا : " سأنتظرك في تامونفوست : أسرع في المسير مع الجنود الذين معك للحاق ببقية الاسطول وارجع الى مملكتك سالما (411) . وأخيرا فقد فهم شارل الخامس سبب فشل مشروعه وأمر بطوي الخيام .

---

(411) مخطوطة المحكمة (MAHEKME) .

وبدأ الفرح ظاهرا بسهولة على الجزائريين الكامنين داخل أسوارهم لأنهم رأوا من فوق سطوحهم بداية تحركات انسحاب المسيحيين (412) .

نزل الفرسان العرب والقبائل مزودين بالسهام والحجارة ليرافقوا سير الجيش المهزوم المتجه نحو واد الحراش تحت الامطار الغزيرة التي لم تتوقف عن النزول .

وفي ليلة الخميس 27 خيّم الجيش في العراء أمام النهر الذي زاد ارتفاعه من الامطار بحيث لا يمكنهم اجتيازه أبدا.

وقد توجب عليهم ذبح خيولهم لتغذية الرجال الذين لم يبق لديهم ما يأكلونه .

وابتداء من اليوم التالي الجمعة 28 ، بدأ الامبراطور باستخراج صواري السفن التي غرقت وبقايا البواخر والقوارب التي تحطمت وتكسرت على الشاطىء لاعادة بنائها من جديد حتى يستعملها الجيش في عبور النهر ، بينما قام الفرسان العرب بالهجوم عليهم من الجهة الاخرى وقتلوا عددا كبيرا منهم ولم يتوقف القتال الا بوصول جيش شارل الخامس من تامونفوست (413).

---

(412) ساندر رانج ودنيس : " تأسيس حكومة الوصاية على مدينة الجزائر " . الجزء الثاني . ص 313.

(413) مخطوطة المحكمة (MAHEKME) .

خـاتمـــــة

الجـزائـــر الـمحروســـــة

الخسارة كانت تامة : فقد خسر الامبراطور 150 سفينة ، وحوالي 10.000 رجل وكذلك كل فرسانه .

وقد حصل سكان مدينة الجزائر على كمية هامة من السلاح بعد هزيمة الجيش المسيحي : حيث عمدوا خلال ذلك الى انزال خمس سفن الى البحر كانت متروكة على الشاطىء ، واستطاعوا بواسطتها استرجاع 60 قطعة مدفعية من بينها 20 مدفعا من الحجم الكبير (414) . واعتبر ذلك اليوم على الخصوص بداية للصعود الذي لا يقهر.

وفي غمرة هذا النصر الاسطوري حيث وقف الحظ الى جانب شجاعتهم وعزيمتهم ، فان سكان مدينة الجزائر كانوا قد رأو الحماية الربانية تنزل عليهم ، بينما عم الفرح وراح كل واحد يشكر السماء بطريقته الخاصة (415) . وانتشرت بين الناس شائعات وخرافات لا تحصى ولا تعد : ومنها أنهم شاهدوا جامع سيدي بتكا مضاء في ليلة المعركة رغم أن هذا الآخير قد مات منذ عدة سنوات ، كما بثوا أيضا شائعات عجيبة : هي أن والي دادا كان يتقدم في البحر ضاربا السفن بعصاه التي رفعت الامواج الى ارتفاعات مخيفة .. كما قام سيدي قدور برمي مخزون الخزف والفخار في الماء واحدة واحدة والتي كانت مخزونة في مخازن على الميناء ، وقالوا بأنه مقابل كل صحن

---

(414) أرشيف سيمونكاس : (ديسمبر 1541) في المجلة الافريقية عدد 21 ـ ص 226 .

(415) الطائفة اليهودية المشهورة في مدينة الجزائر حتى سنة 1962. هذا النصر عرف باسم أبو ريم الجزائر .

كان يتكسّر كانت تغرق سفينة . ورغم ما رووه من أساطير وخرافات وقصص الا أنهم لم يستطيعوا تصديق معجزة واحدة لأنها الاكثر اعجازا في كل ما قالوه وهي أن مدينة الجزائر قد هزمت أكبر جيش من جيوش المسيحيين .

فمن يستطيع أن يقهرها في المستقبل ؟

ان مدينة الجزائر قد استحقت لقب المحروسة حيث ستواصل في المستقبل سعادتها وحظها الذي يحسدها عليه ويخاف منها الجميع ، وشيئا فشيئا فقد فرضت قوانينها وسيطرتها على البحر وسارت في طريق النمو والغنى حتى أصبحت قبل نهاية العصر المدينة الاكثر قوة من بين المدن الجديدة في حوض البحر الابيض المتوسط (416) .

---

(416) برودويل : " البحر الابيض المتوسط " الجزء الثاني ص 227 .

فهرسة (بيليوغرافيا)

عمروش : أرض وشعب الجزائر ـ الشركة الجزائرية للنشر ـ الجزائر 1955 .

أراندا : معاملات الأسرى والحرية لسيور أراندا ـ بروكسل 1662 .

ماسيت : وثائق اسلامية عن حصار الجزائر من قبل شارل الخامس في 1541 في النشرة الفصلية الجغرافية والأثرية لولاية وهران . الجزء العاشر ـ سنة 1890 .

البكري : وصف افريقيا الشمالية ، ترجمة سلان ـ باريس 1965.

بيل : الاسلام عند البربر في " تاريخ ومؤرخوا الجزائر " باريس 1930 .

بلهاميسي : تاريخ البحرية الجزائرية ENAL 1983.
تاريخ مستغانم SNED 1982.

بير بروغر : قلعة الجزائر (البنيون) أو أصول الحكم التركي في الجزائر ـ مدينة الجزائر 1860 ـ العصور العسكرية للقبائل الكبرى ـ الجزائر حصن 1857 جيرونيمو : شهداء الحصن خلال 24 ساعة ـ الجزائر حصن 1854.

بيرك : داخل المغرب (القرن XV ـ XIX) غاليمار 1978.

بونو : I قرصان بربري ـ توران 1964 . (I CORSARI BARBARESCHI)

بوليفة : جرجرة عبر التاريخ ـ الجزائر 1925 .

بورويبة : النقوش التذكارية لمساجد الجزائر ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1984.

برودويل : البحر الابيض المتوسط والشعوب المتوسطية في عهد فيليب الثاني ـ مكتبة A. كولين 1966 (جزئين).

الاسبان في الجزائر " تاريخ ومؤرخو الجزائر" باريس 1930 .

برونشفيك : " برابرة الشرق تحت حكم الحفصيين في نهاية القرن الخامس عشر ـ مكتبة أمريكا والشرق ـ باريس 1940 (ثلاثة أجزاء).

كاملين لاموت برنارد : رحلة مملكتي الجزائر وتونس لافتداء الاسرى 1720.

كازيناف : عبودية العلماء في الجزائر ـ نشرة الجمعية الجغرافية الجزائرية 1924.

سيرفونتيس : الأسير ـ دون كيشوت المانش ـ ترجمة فياردوت منشورات غاريني ـ باريس (جزئين) .

الحياة في مدينة الجزائر ـ المجلة الافريقية العدد 35.

شابويش : الذكرى المئوية للجزائر الفرنسية (تحت الاحتلال الفرنسي) منشورات كاهن (KAHN) ستراسبورغ 1930.

كلوت : سليمان العظيم ـ منشورات فيارد 1983.

كولان : وثائق من تسجيلات العرب والاتراك ـ ليروكس 1901.

دان : تاريخ البربر وقراصنته ـ باريس 1659 .

ديلفوكس : الجزائر / دراسة أثرية وطبوغرافية عن هذه المدينة في العصور الرومانية ، العربية والتركية ـ في المجلة الافريقية 1875 ـ 1878 .

النظام الديني للجزائر القديمة ـ المجلة الافريقية الاجزاء VI ـ XIX .

ديبونت وكوبلاني : الاخوة الدينية الاسلامية ـ الجزائر 1897.

دهينا (DHINA): دول الغرب المسلمة في القرون مابين XIII ـ XIV والقرن XVI ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1984 .

ديوفورسك : الحياة اليومية في موانىء البحر المتوسط في العصر الوسيط ـ باريس 1975 .

ايزنبيت (EISENBETH) : اليهود في الجزائر وتونس في العصر التركي ـ المجلة الافريقية 1952 رقم 96.

أوديل : فن الصياغة الجزائرية والتونسية وتجارتها ـ جوردان الجزائر 1902 .

جينيفو : أساطير ملوك الكوكو ـ البطاقة الدورية 121 . (1944)

فانون (FANAN) : مستخرجات غير مطبوعة خاصة بالمغرب ـ الجزائر 1924.

غرامون : تاريخ مدينة الجزائر تحت السيادة التركية (1515ـ 1830) .

ليروكس ـ باريس 1887 . دراسات جزائرية :القرصنة العبودية ، افتداء الاسرى في مدينة الجزائر 1885 . الغزوات هل هي صيغة خير الدين ؟ فيونوف 1873.

غزيل ـ مارسيز ، بيفر : تاريخ الجزائر ـ باريس 1929.

هامر بيورغ ستال : تاريخ الامبراطورية العثمانية من الاصول حتى أيامنا هذه ـ ترجمة J . J هيلرت . باريس 1835 (18 جزء) .

هاييدو : طوبوغرافيا والتاريخ العام لمدينة الجزائر ـ المجلة الافريقية 1870 ـ 1871 : تاريخ ملوك مدينة الجزائر ـ ترجمة غرامون جوردان الجزائر .

1881 من الاسر في مدينة الجزائر ـ ترجمة موليني ـــر فيول جوردان الجزائر 1911 .

تاريخ ومؤرخوا الجزائر ـ آثار وتاريخ ـ باريس 1930.

هـــوباك : البرابرة ـ بيرغر ـ لافرولت 1949.

ابن خلدون : تاريخ البربر ـ ترجمة سلان ـ باريس 1934 (ثلاثـــة أجزاء) .

ابن حوقل : كتاب صورة الارض ترجمة كرامارس ووايت ، مجموعـة اليونسكو 1964.

جـــوليان : تاريخ افريقيا الشمالية : تونس ـ الجزائر ـ المغرب من الفتح العربي سنة 1830 ـ بايوت 1952 (جزئين).

جوليان غرافيير : القراصنة البربر وبحرية سليمان ـ بلون 1887 .

لانـلـــي : فرنسيبي افريقيا الشمالية ـ مجموعة دراسات علـيـا ـ بـورداس 1970 .

لاووســت : الانقسامات الاسلامية SNED 1965.

لوجبير و تاسي : تاريخ مملكة مدينة الجزائر والوضعية الحاليـــة لحكومتها وقواها البرية والبحرية ـ أمستردام 1725.

ليون الافريقي : وصف افريقيا ـ ترجمة ابيورالد ـ باريس 1981 (جـزئيـــن) .

ليسبيـس : الجزائر : دراسة جغرافية وتاريخ المدن ـ باريس 1930.

مارسييـز : الفن المعماري الاسلامي في الغرب A . M . G .

مارجـون : افريقيا ـ ترجمة نيقولاس بيروت دابلانكور ـ باريـس 1667.

ماس ـ لاترى : معاهدات السلام والتجارة المتعلقة بعلاقات المسيحيين مع عرب افريقيا الشمالية في العصر الوسيط ـ باريس 1966.

ميرسيير : تاريخ افريقيا الشمالية ـ ليروكس ـ باريس 1891 (ثلاثة أجزاء) .

مايكل : الاسلام وحضارته ـ كوليس 1977 .

مونلو : الدول البربرية ـ مجموعة " ماذا أعرف ؟" P.U.F 1973.

باسكالي : تطور الشارع الاسلامي في الجزائر ـ وثائق جزائرية رقم 75 سنة 1955 .

رينارد : البروفانسية ـ منشورات لوسازد 1920 .

روتالبير : تاريخ مدينة الجزائر والقرصنة التركية في البحر الابيض المتوسط ابتداء من القرن السادس عشر ـ لولان 1841 (جزئين).

روسو : أخبار حكومة الوصاية لمدينة الجزائر ـ ترجمة مخطوطة بعنوان " زهرة النيرات " الجزائر 1841 .

ساندر رونج ودنيس : تأسيس حكومة الوصاية في مدينة الجزائر . اعادة نشر المنشورات لسنة 1937. بوسلامة تونس (جزئين) .

تيليارت : الجزائر في الادب الفرنسي ـ باريس 1925 .

تيوربت ديلوف : ببليوغرافيا نقد المغرب في الادب الفرنسي 1532 ـ 1715 S N E D 1976 .

افريقيا البربرية في الادب الفرنسي من القرن السادس عشر الى القرن السابع عشر . جنيف 1937 .

فونيوري دو باراديس : تونس والجزائر في القرن الثامن عشر ـ ساندباد 1983 .

والتر : النساء في الاسلام ـ سندباد 1981 .

المجـلات و النشـرات

- مجلـة المغـرب الاسـلامـي رقـم 8 ـ 1970.
- المجلـة الافريقيـة .
- الجريـدة الاسبوعيـة .
- الوثائـق الجزائريـة 1951 ـ 1955 .
- مجلـة العالـم الاسـلامـي .
- مجلـة تاريـخ حـضارة المغـرب .
- قرارات المؤاتمرات العالمية الثانية لدراسة ثقافات البحـر الابيض المتوسط الغربي SNED 1978.
- النشرة الفصلية الجغرافية والاثرية لولاية وهران T.X 1953.
- القصبـة : البناء والتنظيم G.A.M ـ O.R.E.F 1985.
- مدن الجزائر في القرن التاسع عشر ـ المركز الثقافـي الجزائـري في باريـس 1984 .
- المجلـة التاريخيـة للجيـش 1953 .
- المجلـة البحريـة 1931 .

———0———

ملحـــق رقم (1)

تاريـخ الأحـــداث

1492 : سقـوط مملكـة غـرناطـــة .

1505 : (أكتوبر) احتلال الاسبان لمرسى الكبيـر .

1509 : (مـاي) احتـلال الاسبـان لوهـــران .

1510 : (6 جانفي) احتلال الاسبان لبجاية . (31 جانفي) سكان مدينة الجزائر وقعوا معاهدة مع الاسبان . تشييد قلعـــة الجزائر المسماة (بنيون) من قبل بدرو نفارو .

1511 : .....

1512 : عروج يهاجم بجاية حيث خسر ذراعـــه .

1513 : .....

1514 : (أوت) فشل المحاولة الثانية لعروج أمام بجاية .

1515 : موظفوا سفارة مدينة الجزائر في اسبانيا يحتجـــون ضـــد اغتصاب القلعة المسماة البنيون .

1516 : (23 جانفي) موت فرديناند داراغون . وصول بـاربـاروس للجزائر . (12 أوت) مهاجمة القلعة (البنيون).
سبتمبر اغتيال سليم التومي . (30 سبتمبر) محاولة انزال اسبانية قام بها دييغوا دوفيرا .

1517 : (فصل الربيع) محاولة تمرد قام بها وجهاء وأعيان مدينـة الجزائر . المتآمرون والمتواطئون قتلوا داخل المسجد .

احتلال القاهرة من قبل سليم الاول . تتويج شارل الخامس ملكا على اسبانيا . (جوان) احتلال مدينة تنس من قبل جيوش عروج التي تابعت زحفها على تلمسان .

1518 : (ماي) طرد عروج من تلمسان وقتله من قبل الاسبان . ارتداد بن القاضي . خير الدين أرسل مبعوثا الى استانبول ليطلب حماية السلطان . (20 أوت) محاولة انزال اسبانية بقيادة القائد هيغوا . احتلال مستغانم .

1519 : (15 ماي) خير الدين باشا تحت الحماية العثمانية . ضابطة كارا حسن يطرد بن القاضي من الكوكو . احتل كارا حسن كولو . رجع بن القاضي الى الجزائر تحت حماية ملك تونس . هزيمة خير الدين في فليسة أم الليل.

1520 : احتل ابن القاضي مدينة الجزائر . نفي خير الدين الى جيجل . تحالف خير الدين مع عبد العزيز ملك لابيس . احتلال كولو . (21 سبتمبر) موت سليم الاول .(30 سبتمبر) تسليم سليمان السلطة .

1521 : خير الدين يقهر مدينة قسنطينة .

1522 : خير الدين يقهر مدينة عنابة .

1523 : حكم بن القاضي مدينة الجزائر .

1524 : .....

1525 : هزيمة ابن القاضي من قبل خير الدين بمساعدة عبد العزيز منطقة بني عيشه (الشنية) . موت ابن القاضي .

1526 : استرجع خير الدين مدينة الجزائر وتابع القتال ضد الاخوة ابن القاضي . خير الدين يقهر مستغانم .

1527 : .....

1528 : .....

1529 : (6 ماي) بداية العمليات ضد قلعة الجزائر (البنيون).
(27 ماي) سقوط القلعة .

1530 : .....

1531 : محاولة انزال قام بها اندريا دوريا في شرشال .
(ديسمبر) محاولة تمرد العبيد (دون بورتوندو).

1532 : بناء الرصيف و الميناء .

1533 : استدعاء خير الدين الى استانبول . عهد حسن أغا .

1534 : (افريل) عين خير الدين سيلار باي مدينة الجزائر .
حصّن حسن أغا الميناء . (أوت) خير الدين استولي على تونس .

1535 : (جويلية) استرجع شارل الخامس مدينة تونس .
انسحاب خير الدين الى مدينة الجزائر . في نهاية العام غادر خير الدين مدينة الجزائر نهائيا .

1536 : اشاعة تتعلق بهجوم اسباني ، سكان المدينة بدأوا بمغادرتها.
بعد الامطار التي اجتاحت قرطبة تهدم السور المحيط بها من ثلاث أماكن مختلفة .حسن أغا استمر في تحصين الاستحكامات (الحصون) .

1537 : .....

1538 : .....

1539 : أول تحرير للعبيد بواسطة الأباء الثالوثيين (يؤمنون بالثالوث الاقدس) لويس سيودير وجاك فينيرون) .

1540 : .....

1541 : (26 نوفمبر) محاولة حملة شارل الخامس وفشلها . (نوفمبر) عاصفة دمرت نصف الارصفة والسفن البحرية في الميناء .

———0———

ملحق رقم (2)

جدول مقارنة المعدات المستخدمة من الجيوش حسب سنة بوقعيس

بتعلق بموضوع شارل الخامس (1541)

SAKDER-RANG ساكدر رانج	JULIES DE LA GRAVIERE جوليان دو غرافيير	ARCHIVE SIMANCAS سيمونكاس	CHARLES JULIES جوليان	SANITEME سانتيم	HARDI هاردي	GRAMONET غرامونت	GRAMONET غرامونت	VILLEGAGNON DE فيلجنيون	HAMMER هامار
الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية	الجيوش الاسبانية والسفن البحرية
65 سفينة حربية 452 سفينة 516 سفينة 23800 بحار	65 سفينة حربية 451 سفينة 516 سفينة 24000 بحار		516 سفينة شراعية 12230 بحار 24000 جندي 36230 جندي		500 سفينة شراعية	400 - 450 سفينة شراعية	451 سفينة 519 سفينة صغيرة 28900 جندي 12330 بحار	65 سفينة حربية 7.000 اسباني 6.000 الماني 16.000 ايطالي 13000 آخرين 400 مالطي	76 سفينة حربية 200 سفينة 274 سفينة صغيرة 22000 مقاتل 1500 فارس 400 فارس مالطي
36230 رجل	36000 رجل		36230 رجل			50 000 رجل	36230 رجل	26 400 رجل	23 400 رجل
جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية
—	800 تركي 5000 مغربي	1000 تركي و 2600 من المتطوعات و الولايات	—	—	3000 تركي حليف من الاندلسيين و المغاربة	—	800 تركي 5000 مغربي	800 تركي 5000 مغربي	500 فارس بعض الآلاف من العسرب

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
. الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر